

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا - الآداب والنقد



أبو القاسم الشابي
دراسة في حياته وأدبه

٢٧٨٦

بحث مقدم

من

الطالب: فخرى أحمد حسن طمليه

١٩٧٤ - ١٩٧٣

الفصل الثالث : طابع شخصيته

- (١) التشائم ٤٠
 (٢) فلسفة الموت عند ابي القاسم الشابي ٦٢
 (٣) موقف الشابي من شعبه ٧٤
 (٤) موقفه من الدين ٨٨
 (٥) موقفه من القديم ودعوته الى التجديد ٩٥
 (٦) آشار الشابي الادبية ١٠٧

الباب الثاني : شعره وشاعريته

الفصل الاول :

- ١ - تجربته الشعرية
 (أ) مفهومه للشعر ١١٣
 (ب) تأثره بالمدارس الادبية المختلفة
 (١) تأثره بالادب العربي القديم ١١٩
 (٢) تأثره بالادب الاجنبية ومدرسة الديوان ١١٩
 (٣) تأثره بجماعة "أوبللو" ١٢٠
 (٤) تأثره بشعراء المهجر ١٢٣
 ٢ - منزلته الشعرية :
 ١٢٦
 ١٢٨
 ابو القاسم شاعر ذو سمعة عالمية

الفصل الثاني : اهم اغراض شعره وخصائصه الفنية

- (١) الرثاء ١٣٠
 (٢) شعر الطبيعة ١٣٣

صفحة

١٤٠

١٥٠

١٥٢

(٣) القزل

الخاتمه

المراجع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمته

ان كتابة بحث في موضوع ما في الادب العربي ، تقتضي وقوف الباحث طويلا ، متأملا مفكرا ، فهذا الادب عريق ، مر في أطوار متعددة ، وفي مراحل تاريخية تمتد الى اعماق التاريخ بدءا بالعصر الجاهلي وامتدادا في العصور التي لحقته حتى يومنا هذا . ولما كان القديم والوسيط قد حازا زعما كبيرا من الابحاث نوهت بها ، وبينت عناصر القوة والاشراق فيها ، ويعبر ما اعتراها في عصر عصورها من تخلف وجمود ، أحببت ان يكون بحثي في الادب العربي المعاصر ، الذي لا يزال يخط طريقه نحو السموق والارتفاع ، ليعيد لهذا الادب فناء مستفيد من منابع تاريخه الثرة ، ومما وصلت اليه حضارة الانسان المعاصر في شتى مجالات الحياة ، خاصة الادبية منها ، ولأن الأمة العربية تواجه التحدي ، فلا بد للأدب ان ينهض بدوره في توعية الناشئة من أبناء الأمة ، يصور لها الواقع ، بل وينفذ فيه ، ليكشف عن مكامن الهداء ، ينير العقل ، ويفذي العاطفة ، ويهدي الى الدرب ، ووقفت هنا أجول ببصرى بين أدباء العصر وشعرائهم ، ممن عني بقضية الأمة ، وقضية الحياة ، فوجدت الكثير واخترت من بينهم - أبا القاسم الشابي - ليكون موضوع دراستي ، لما لمست عند الشاعر من توقد العاطفة ، ورشف العس ، ومن اهتمامه بقضية شعبه الوطنية تجلّت في العديد من قصائده ، دعا فيها قومه للاخذ بأسباب القوة ، وأن الحياة لن تنقاد لهم ، الا اذا تحررت فيهم الارادة ، وشحنوا العزم ، ثم تلك القصائد التي جاهر فيها

المستعمرين عداً ، وأنذرهم بالويل والثبور من صدوة الشعب ،
عندما الجانب من جوانب شعر أبي القاسم نحو الذي يعجبني .
بل قد يكون نحو الحافظ الذي دفعني الى دراسته . ولا يعني
عندما أن ابا القاسم قد تجاوز السلبيه في كل قصائده فهناك
قضايا وقفت عندنا وناقشتها ، ولعل أهمها سياط الغضب التي
لمس بها الشاعر شعبه ، بعد أن أيقن انهم فير مصيخسي
السمح له ، ثم ناقشت بعض النواحي السلبيه في رومانسيته
التي تجلّت في عزله في الخاب وايتاره الحياه فيه ، وعن
الحياه في قلب المجتمع الذي منه نبت وفيه نما .

وحتى أقف على المؤثرات العامه التي طبعت شعر أبي
القاسم ، كان لا بد من الوقوف ولو عنيه عند بيئته العامه ، ^{ص ١٢}
وما اعترانا من اسباب الضعف ، وما جره عليها المستعمر من
ظلم . ثم وقفت عند بيئته الخاصه ، ومراحل حياته ، وما أصابه
فيها من احداث أثرت في سير حياته ، ونسجت انماط تفكيره ،
فعرضت فلسفته في الصوت ، وموقفه من شعبه ، ودعوته الى التجديد ،
وفيرتها من انماط السلوك التي عاشها .

ولما كان الشعر نحو الوعاء الذي ضمّنه كل هذا عرضت
لنماذج من شعره وبينت تجربته الشعريه وروايتها .
واني لأرجو أن أكون قد وفقت ، وأتمنى أن أكون في نهجي
قد اتسمت بقسط من الموضوعية ، وبعد عن الانحياز للشاعر أو التعامل عليه .

فخرى أحمد حسن طمليه

١٩٧٤ / ٤ / ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الباب الأول

- ٠١ بيئة ابي القاسم العامة
- ٠٢ بيئة ابي القاسم الخاصة
- ٠٣ طابع شخصيته

الفصل الأول

بيئة ابي القاسم العاصمة

تونس تحت وطأة الاحتلال الفرنسي

أ) قصة الاحتلال :

قبل ان يحتل الاستعمار الفرنسي تونس ، كانت خاضعة للحكم العثماني ، يقوم بادارتها حكامها الذين عرفوا باسم (البايات) . وكان هؤلاء هم الحكام الحقيقيون للبلاد ، ولم يكن للادولة العثمانية الا السلطة الاسمية .

قوى حكام تونس علاقاتهم بالدول الأوروبية ، وكانت تربطهم معاهدات تجارية في نفس الوقت الذي كانت ترتبط فيه تونس بالدولة العثمانية بعلاقات ود و صداقة . فكانت تونس تقدم للدولة المساعدة في حروبها ضد اعدائها .

وحين استشرى الاستعمار الغربي ، وسيطرت فرنسا على الجزائر اخذت تحاول بكل جد احتلال تونس ، وكان ينافسها في ذلك ايطاليا وانجلترا .

حاول (البايات) ان ينمو بلادهم ، ولكنهم تورطوا في علاقاتهم المسالية بالاجانب ، واستعانوا بالشركات الفرنسية ، والايطالية والانجليزية في مشروعاتهم ، وبهذا مهدوا الطريق امام المستعمرين ليحققوا اطماعهم في البلاد .

والاوضاع في تونس في هذه الفترة كانت شبيهة بتلك التي
سادت مصر في عهد الخديوي اسماعيل ، وكانت النتائج التي ترتب
عليها متماثلة في البلدين ، فقد اهتم رجال الحكم في تونس
بالجيش والاسطول ، وفي سنة ١٨٤٠ ، أنشأ (احمد باي) مدرسة
لاعداد ضباط الجيش ، واستخدم العديد من الضباط الاجانب في
سبيل ذلك ، وهذا يذكرنا باعمال محمد علي في مصر .

بالاضافة الى هذا التيار الخسري الذي حاول (البايات)
جلبه الى تونس كان جامع الزيتونة ، يقوم بدوره الثقافي العربي
الاسلامي ، وهذا يذكر بالدور الذي لعبه ويلعبه (الازهر الشريف)
في مصر في الحفاظ على التراث ، والتمسك باركان الدين الحنيف .

كما حاول (البايات) تدسين نظام الادارة المحلية والقيام
بالمشاريع الاعمارية ، الا ان ذلك وبسبب سوء الاداره ، وكثرة الانفاق
على القصر الحاكم ادى الى تورط تونس ، في ديون لم تستطع
لها سد ادا ، وادى ذلك الى الاشراف المالي على مقدرات تونس
عن طريق (لجنة دولية) ، وبذلك اصبح الطريق مهيدا لاحتلال
تونس .

كانت الدول الطامعة في احتلالها ثلاثا : فرنسا ، انجلترا ،
وايطاليا ، حاولت كل منها جاهدة الحصول على امتيازات تتيح لها
التحكم بتونس واحتلالها ، فقد منح الباي (محمد الصادق) الشركات
الفرنسية امتيازات السبرق والمياه والخطوط الحديدية كما ترك
الفرنسيين حرية فتح المدارس ، ومنح رعيايا فرنسا امتيازات تجارية .

أما انجلترا فكان يمثلها في تونس خلال المستينات من القرن التاسع عشر ، ممثل دبلوماسي ، استطاع ببراعته أن يجعل لدولته مركزا ممتازا في البلاد التونسية ، وان يحول دون تقوية النفوذ الفرنسي ، وانفراد فرنسا بالتدخل في شؤون تونس ، واستطاع الممثل الدبلوماسي الانجليزي ان يحصل لبلاده على عدة امتيازات لاقامة مشروعات في تونس ، مثل امتياز سكة الحديد الجزائرية التونسية ، وامتياز تأجير واستغلال مساحات كبيرة من الارض الزراعية وكان القادة الانجليز يشرفون على تدريب الجيش التونسي .

وأما ايطاليا المناقصر الثاني لفرنسا ، كانت ترى ان تونس هي جزء من الامبراطورية الرومانية القديمة ، وانها حق لايطاليا ، كما كانوا يرددون بأن تونس امتداد طبيعي لصقلية ، واستطاع ممثلها المقيم في تونس ان يعقد معاهدة مع الحكومة التونسية منسج الايطاليين بموجبها الكثير من الامتيازات للعامل في تونس ، في المجال الصناعي والتجاري والزراعي وفي التعدين ، بالاضافة الى امتيازات اخرى تتعلق بحرية التنقل والتملك .

ولكن كيف استطاعت هذه الدول ان تتفق فيما بينها ؟؟ أو

كيف استطاعت فرنسا ان تنال بنيتها في احتلال تونس؟

لم تكن المشكلة امام الدول الاستعمارية هي كيفية التغلب على الدول الصغرى ، انما المشكلة هي ارضاء شركائهم من عصاة المستعمرين ، قبل القيام بأي عمل منفرد .



لقد سعت فرنسا للحصول على موافقة إنجلترا بالقبول
وانتهزت فرصة احتلال بريطانيا جزيرة قبرص ، اثارته فرنسا
الموضوع في اثناء انعقاد مؤتمر الدول الكبرى في بريسن برئاسة
(بسمارك) ، فاتفق على الاعتراض إنجلترا اي تدخل فرنسي في
تونس ، مقابل عدم اعتراض فرنسا على احتلال بريطانيا لقبرص ،
واستغلت بريطانيا هذه الاتفاقية لتطلق يد لها في مصر .

ولكن اذا استطاعت فرنسا كسب موافقة إنجلترا ، فكيف استطاعت
كسب موافقة ايطاليا ؟ ظل الصراع عنيفا بين الدولتين ، وحاول
مثل كل دولة الحصول على امتيازات اكبر لدولته بمختلف الطرق
واكن فرنسا اوحى لاطاليا ان بإمكانها ان تحتل طرابلس (ليبيا)
وان فرنسا لمن تتدخل في ذلك .

(ب) مبرر الاحتلال :

والآن بعد ان استطاعت فرنسا ارضاء شريكها باقتسام الغنيمة
اصبحت تنتظر المبرر مهما كان ضعيفا لتمثل تونس ، فقد حدثت
سنة ١٨٨٠ ان حاولت احدى الشركات الفرنسية شراء ضيعة كبيرة
في تونس لاستغلالها ، لكن (الباي) لم يملكها من ذلك ، فاعتبرت
فرنسا ذلك عملا عديما ضدنا .

وفي ١٦ ابريل سنة ١٨٨١ ، ابلست فرنسا (الباي) ان الجنود
الفرنسيين سيعبرون الحدود التونسية لمطاردة قبعض القبائل الجزائرية
الناشرة ، والسبي التاجات الى الاراضي التونسية ، وطلبت منه ان
يتعاون معها لاقرار الامن والنظام .

وفي ٢٩ ابريل من نفس السنة عبر الجنود الفرنسيون الحدود واحتلوا (الكان) و (طبرقه) بدون مقاومة ، كما انزلت فرنسا بعض قواتها في ميناء - بنزرت - التونسي .

وبعد احتلالها تقدموا صوب العاصمة ، وهناك قدم السفير الفرنسي الى (الباي) نسخة من المعاهدة المطلوب منه التوقيع عليها ، واعطى (الباي) مهلة لبضع ساعات ليقرر بتوقيعها ، فما لبث ان وقعها ، وهكذا تمت السيطرة الفرنسية على تونس .

ج) نص الاتفاقية :

البند الاول : نص على تأييد وتجديد جميع المعاهدات السابقة بين الجمهورية الفرنسية (وباي) تونس .

البند الثاني : تحتل القوات الفرنسية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النظام والامن بالحدود والسواحل ، وينزل هذا الاحتلال عندما تقرر السلطان الفرنسية والتونسية ان الادارة المحلية قادرة على المحافظة على الامن .

البند الثالث : تتعهد فرنسا بحماية (الباي) من اي خطر يهدد ذاته أو مملكته .

البند الرابع : تضمن فرنسا تنفيذ المعاهدات المعقودة بين تونس والدول الاخرى .

البند الخامس : يمثل فرنسا في تونس وزير مقيم للاشراف على تنفيذ احكام هذه المعاهدة .

البند السادس : يقوم المثلون الدبلوماسيون لفرنسا في البلاد
الاجنبية برعاية مصالح تونس في هذه البلاد .

البند السابع : تتفق الدولتان على وضع نظام مالي للوفاء بواجبات
الدين العام .

وقد وقع هذه المعاهدة ككل من (محمد الصادق)
بإى تونس ، والجنرال (بيرياد) المفوض من رئيس الجمهورية
الفرنسية . (١)

ج) تونس بين انياب الذئاب :

احتلت فرنسا تونس باسم النظام والامن كما نص عليها البند
الثاني من الاتفاقية ، ولكنها اعتدت اول ما اعتدت على النظام
الديمقراطي للبلاد ، فلم يكن من اليسير عليها ان تستحوذ على
مقاليد الحكم ، ما دامت السلطة التشريعية بيد اصحاب البلاد
الشرعيين ، فألغيت الدستور ، والمجلس التشريعي ، واصدرت
سلسلة من القوانين والتشريعات التي تمكنها من السيطرة على
البلاد ، واستنزاف مائها ، والهيمنة على مقاليد الحكم فيها ،
فاعتدت على حريات الافراد والجماعات واستهترت بحقوق التونسيين
وامتهنت كرامتهم .

(١) د . شوقي الجمل ، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، مكتبة الانجلو

المصرية ، ١٩٧١ ، ص ٤٧٦ .

وجسريا على الخطة التي اتبعتها فرنسا في معـو الكيان التونسي
وانتزاع السلطات من يد اصحاب البلاد عمدت الى شل الهيئة
الموزارية ، فألغت مناصب الوزارات الوطنية التي كانت موجودة قبل
الاحتلال ، ولم يبق فيها غير منصب الوزير الاكبر ، ووزير التعليم
والاستشارة ، ثم اضافت اليها منصب وزير العدل سنة ١٩٢١ ،
ومنصب وزير الشؤون الاجتماعية سنة ١٩٢٥ .

وليس لهذه الوزارات التي يتولاها التونسيون اية سلطة
فصلية ، فهي شياكل لا روح فيها ، ووضع بجانب كل وزير تونسي
مدير فرنسي بيده السلطة الحقيقية ، واما المقيم العام فيعتبر
رئيس الوزراء الفعلي ، ووزير الخارجية في الوقت نفسه . أما
بقية المصالح الاخرى من مالية ، ومصارف ، واشغال عامه ، وبريد
واقتصاد الخ ، فيتولاها مديرون فرنسيون . (١)

وقد جرد مدراء " النواحي " من كل نفوذ ، ان وضع بجانبهم
موظفون فرنسيون ينوبون عن المقيم العام ، ويبدون كل سلطة .
والمقيم العام بوصفه رئيسا للوزراء ، فهو الذي يصدر
القرارات ويوقعها اما الوزراء التونسيون ، فليس لهم اية سلطة
مهما ضوّلت ، ويقتصر عملهم على حضور جلسات مجلس الوزراء
الذي يعقده المقيم العام مرة كل شهر .

(١) عبد الحميد مسعود الجزائري ، المنرب العربي وكفاحه ، القايره ،

دار الجامعة للطبع والنشر ، دون تاريخ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

د (اعتداء فرنسا على السلطة القضائية التونسية) :

اما اعتداء فرنسا على السلطة القضائية ، فيتجلى في انشاء محاكم فرنسية تتولى القضاة الى جانب المحاكم التونسية ، ولهذه المحاكم الفرنسية اختصاص واسع يشمل المنازعات بين الفرنسيين والاجانب اوبين هؤلاء والتونسيين ، وكذلك جميع المنازعات المتعلقة بالعقار المسجل ، وهكذا انتزعت فرنسا جزءا كبيرا من سلطتها ، ولم يبق من اختصاصها الا ما يتعلق بالتونسيين وحدهم اوبالعقارات غير المسجلة ، هذا فضلا عن ادارة المحاكم التونسية التي يتولاها رؤساء فرنسيون .

وقد جعلت الجرائم السياسية من اختصاص المحاكم الفرنسية وحدها منذ سنة ١٩٢٦ ، فالوطنيون التونسيون الذين تتعلق بهم قضايا سياسية ، لا يحاكمون امام محاكم تونسية ، بل يختص بالنظر في امرهم القضاة الاستعماري .

وهكذا خرجت هذه المحاكم عن حدود اختصاصها الطبيعي وهو تحقيق العدالة ، فأصبحت أداة تستخدم لارهاب الوطنيين والقضاة على الروح القومية .

ولقد بلغ استهتار الفرنسيين بالقضاة والحريات العامة الضرورية للأفراد الى حد ان اصدرت السلطة الفرنسية امرا بتاريخ ٦ مايو سنة ١٩٣٣ ، يخول المقيم العام حق اعتقال اي فرد لمدة سنتين قابلة للتجديد دون اية معاكمة ولو صوريه (١) .

(١) عبد الحميد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، القاهرة ، دار الجامعة للطبع والنشر ، دون تاريخ ، ص ٨١ .

د) فرنسا تضع يدها على عناصر الانتاج التونسي :

ان غاية الاستعمار هي الاستيلاء على ثروة البلاد المستعمرة (بضم السين) وتوجيه السياسة الاقتصادية فيها من انتاج وتداول وتوزيع لصالح دوانة الاحتلال على حساب البلد المحتل ، والموصول الى هذه الغاية تضع النظم والقوانين الملتوية وتتخذها أداة لتنفيذ اغراض الاستعمار الاقتصادية .

وقد بادرت فرنسا منذ بداية الاحتلال الى وضع يدها على عناصر الانتاج والتداول . واطلقت يد الفرنسيين والاجانب في تونس مهينة لهم سبيل الاقتصاب ، مما ادى الى اغتلال التوازن الاقتصادي وانخفاض مستوى المعيشة بين الاهالي وقد شمل التدخل الفرنسي من هذه الناحية جميع فروع الانتاج الثلاثة : الزراعة والصناعة والتجارة .

ولاجل ان تسيطر فرنسا تمام السيطرة على الناحية الاقتصادية في البلاد وجهت همها الى الاستيلاء على الاراضي الزراعية ، فأصدرت التشريعات المختلفة ، لانتزاع الاراضي من يد التونسيين واقرار الفرنسيين بها ، فأصبح هؤلاء هم المتحكمين في حياصة البلاد الاقتصادية . وبذلك اصبح الشعب التونسي مهددا بالفقر امام هذه القوى التي تسندها السلطة التشريعية والتنفيذية في البلاد .

و) فرنسا تعمل على مسح الروح القومية ومحاربة اللغة العربية :

اتجهت سياسة فرنسا التعليمية منذ الاحتلال الى مسح الروح القومية وذلك بمحاربة اللغة العربية ، والاستعاضة عنها باللغة

الفرنسية ، وتطبيق برامج خاصة لاخراج الناشئة عن قوميتها
العربية ، وقطع الصلة بينها وبين ماضيها وتاريخها لتتمكن من
ادماجها في العنصر الفرنسي .

كانت اللغة العربية هي لغة التعليم قبل الاحتلال ، وكانت
جامعة الزيتونة وغيرها من الكتاتيب والزوايا التي تشتمل على كثير
من التلاميذ الذين يتلقون الثقافة العربية على الطريقة القديمة ،
الى جانب مدرسة حديثة كبرى يتلقى فيها الطلاب العلوم العصرية
واللغات الاجنبية .

وفي سنة ١٨٨٢ أسس الفرنسيون ادارة العلوم والمعارف ، ووضعوا
برنامجا لانشاء مدارس ابتدائية فرنسية للاوروبيين والمغرب ، على
غرار المدارس الموجودة في فرنسا نفسها ، ولم يكن للغة العربية
اي وجود في هذه المدارس ، وكانت نظرية مدير العلوم والمعارف
وقتذاك - وهو موظف فرنسي - ان ينشئ شبكة من المدارس في
كل المدن يؤمها الاطفال سواء كانوا تونسيين أو من الجاليات
الاجنبية الاخرى لينشأوا نساء فرنسيه صرفة . (١)

وبخلاصة القول ، ان السلطة الفرنسية اتجهت في سياستها
التعليمية الى محاربة اللغة العربية ، من جهة ، وفي سبيل
فرنسة الناشئة من جهة اخرى .

(١) عبد السيد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، ص ٨٤ .

و (فرنسا تهمل الناحية الصحية في القطر التونسي) :

ولم تقم السلطة الفرنسية بواجبها من الناحية الصحية ، بل أهملته ككل الاعمال ولم تخصص في الميزانية التونسية من الاعتمادات مما يكفي القيام بشئون الصحة ، ويتضح ذلك من ضآلة عدد المستشفيات وعدد الاسرة بها ، وانعدام الاجهزة الطبية اللازمة .

ولم تكن السلطة الفرنسية تعير الاسعاف العظام اي اهتمام ، فوسائل مقاومة الامراض المعدية لا تكاد تذكر . واكثر الامراض فتكا كان مرض السّل ومع ذلك لم تكن توجد مصددة واحدة لمعالجة هذا المرض .

كما ان حماية الطفوله كانت معدومة ، ولم تتعهد السلطة الفرنسية الشيوخ والعجزة من التونسيين ، بينما تجدها قد خصصت للفرنسيين مؤسسات متعددة تنفق عليها من الميزانية التونسية .

وكثر نسبة الوفيات في تونس بسبب اهمال السلطة الفرنسية لشئون الصحة ، وخاصة مقاومة الامراض البوائية ، والامراض المعدية وهو راجع كذلك الى الفقر ، وقلة التغذية التي يعانيها الشعب من جراء سياسة فرنسا الاستعمارية .

في هذا الوسط ، وفي لجة هذه المعاناة عاشر الشعب التونسي ، وعاشر شاعره ابو القاسم الشابي ، يجاهر الاستعمار عداءه ، ويدعو الشعب الى الثورة ، يدعوه الى الحيلة عن طريق الايمان بالحياة والايمان بالحق ، فايمن الشعوب المهضومة الحقوق

كفيل ان يرد لها حقوقها ، واتحاد الامم المغلوبة على امرها
قمين ان يرد الى الشعوب حريتها ، وما بعد الليل البهيم ،
والظلم ، سالك الا الفجر المشرق والنهار الساطع .

ان الجرائم التي ارتكبتها المستعمر لا يمكن ان يقبلها كل من
يشعر بكرامة انسانيه ، فنهض الشعب التونسي وقام الاحتلال
وقارعه على صوت شاعره .

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

ففي سنة ١٩٢٠ انشأت الشعبية التونسية - حزب الدستور -
وكان برنامجها يهدف الى اقامة نظام ديمقراطي ، وتوطيد الحكم
في القطر التونسي على اساس دستوري . اتخذت فرنسا مسن
التدابير ما يكفي لقمع كل حركة فاعتقلت عام ١٩٢٥ من الزعماء
التونسيين ما اعتقلت ، ونفت من نفت ، وأرغقت الشعب بضروب
عجيبة من الاقنار والاذلال .

وفي عام ١٩٣٠ ، ضاعفت فرنسا ضغطها على الشعب التونسي
فتجمع الشعب التونسي ، وآمن بأهمية تضافر جهوده اذا اراد
قهر المستعمر فأنشأ حزب - الدستور الجديد - الذي ظهر
على مسرح السياسة التونسية عام ١٩٣٤ أي في السنة التي قضى
بها ابو القاسم نحبه .

يتضح من هذا العرض التاريخي ان تونس لم تعرف الراحة ولا الاستقرار ولا الرخاء منذ منتصف القرن الماضي ، ولكن الحركة الوطنية التونسية بدأت تظهر بوضوح بعد عام ١٩٢٠ حين اسست الشبيبة التونسية حزب - الدستور - واذ اعرفنا ان وهي ابي القاسم انما تفتح بين عامي ١٩٢٥ ، ١٩٣٢ ، اي في عهد كانت تجتاز فيه بلاده أمر وأقصى مرحله من مراحل تاريخها الحديث ، وفي هذه المرحلة بدأ الشباب التونسي يتصدى / للفنزوينازله ، ذلك هو الجو المكفهر الذى احساط بشاعرنا ، وتلك هي الاوضاع الاجتماعية القاسية المؤلمة التي نما في وسطها احساسه . فكان لا بد ان تحدث فيه اعماق الاثر ، وهو الشاعر المرهف الحس ، المتوقد المشاعر ، وكان لا بد ان يؤثر فيها ، فقال من الشعر ما ساعد على تأجج الثورة ، وقال من الشعر عاثا شعبه على الصمود والتحدى ، بل ولم يقف به الحد الى هنا بل ساهم عمليا في مظاهرات الاحتجاج التي كان يقودها ضد الاحتلال .

* * *

الفصل الثاني

بيئة أبي القاسم الخاصة

١ - مولده ونشأته :

ولد أبو القاسم بن محمد بن أبي قاسم بن إبراهيم الشابي في الثالث من صفر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وعشرين هجرية ، الثالث من نيسان (ابريل) سنة ألف وتسعمائة وتسع ^ومئتين ميلادية . في قرية الشايبة من أعمال توزر من الجنوب التونسي ، وهذه المنطقة تدعى بلاد الجريد - ومعناها بلاد النخيل - " ومنطقة الجريد في الجنوب التونسي عباره عن اربع واحات هي : توزر ، نفثا ، المديان ، والحمه ، وكلها تقع في البرزخ الذي يفصل السبختين الكبيرتين : الجريد وفرسه ، على تخوم الصحراء وقفارها المترامية ، وهذه الواحات الاربع تلفت الانظار ، وتستهوئ الاثدة لما هي عليه من سعة ، وما تتمتع به قراها الكبيرة من اهمية اذ ان مياهها فزيرة وافرة ، ونباتاتها واشجارها باسقة رائحة ، ومواقعها جميلة وأخاذة " (١)

نشأ أبو القاسم في بيت علم عن اسرة محافظة ، فأبوه محمد الشابي درس على الشيخ محمد عبده ، واجيز من الازهر الشريف ولي القضاء ببعض جهات البلاد التونسية ، وكانت اولس البلاد التي عمل بها (سليانه) كان ذلك بتاريخ ١١ ربيع أول ١٣٢٨ هـ ، ٢٢ آذار (مارس) ١٩١٠م بمد ولادة أبي القاسم بسنة تقريبا ، ثم عين في قفصه في ٢١ رمضان

(١) عبد اللطيف شراره ، الشابي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٢٣ ، ص ٨ .

١٣٢٩ هـ ، ١٤ سبتمبر ١٩١١ ، ثم انتقل الى قابس في ١٥ صفر ١٣٢٢ هـ ،
ثم انتقل بعد ذلك الى جبال تاله في ٢٢ رجب ١٣٣٥ . وكان
ابو القاسم يتقل مع والده في كل المناطق التي عمل بها (١) ، وبذا
يكون ابو القاسم قد طوّف في مختلف انحاء البلاد التونسية ، وعاش حياة
شعبه ، واطلع عليها في ادنى البلاد واقصاها ، وكان لذلك كله اثر
على حياة ابي القاسم ، وعلى صنع اتجاهاه ، فمن ضيق اختلاطه بأبناء
شعبه في نواحي البلاد المختلفة ، اطلع على كل المآسي التي كان
يحياها هذا الشعب ، وشاهد مظاهر التخلف والبؤس التي ماناها ابنا
الامة .

٢ - هافته :

درس الشاعر في اول مراحل حياته في الكتاتيب ، دخلها وهو
في الخامسة من عمره ، وحفظ القرآن بكامله وهو في التاسعة من عمره
وتولى والده تثقيفه وتدرسه حتى بلغ الحادية عشرة .

وفي بداية الثانية عشرة من عمره ، في ١١ / ١٠ / ١٩٢٠ التحق
بكلية الزيتونة واستمر يدرس بها العلوم الدينية واللغوية حتى تخرج فيها
سنة ١٩٢٨ ، وبذلك دخل ابو القاسم حين دخل جامع الزيتونة خضم
الحياة الواسع في عاصمة بلاده ، وتفتح بالحرة المطلقة ، فهو يختلف
الى دروس الجامع ، حتى اذا كان وقت الفراغ امضى الساعات الطوال
بمكتبة الخلدونية ، او بمكتبة قداماء الصادقية ، وفي العاصمة كتب اول قصيدة
له ، ويقول اخوه الامين الشابي : أن اول قصيدة قالها الشابي كانت

(١) عامر فديرة ، محاولة جعل اطار لترجمة الشابي ، مجلة الفكر التونسية س ٥ ، ع ٣
ص ١٣ - ٢٥ ، ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم محمد كرو
ص ٤٢ - ٥٠ .
٢٣ / ٠٠٠

في الخامس عشر من ذى الحجة ١٣٤٢ ، ١٨ يوليو ١٩٢٤ ، فاذا علمنا ان الشابي ولد في عام ١٩٠٩ يكون الشابي قد بدأ ينظم الشعر وهو في الخامسة عشرة من العمر .

وكانت اولى قراءاته الادبية ما اتجه اديباء المهجر من امثال (جبران ، ونعيمي ، وأبي ماضي) . وعكف ايضا على دراسة الانتاج الادبي القديم في عيون كتبه ، كالافاني ، وصبح الاعشى ، ونفس الطيب ، والكمال ، والامالي ، والعمدة ، والمثل السائر ، والصناعتين وغيرها .

وفي سنة ١٩٢٨ حاز ابو القاسم الشابي على شهادة التطويق التونسية ، وبعد ما انتسب الى مدرسة الحقوق التونسية ، فتخرج منها سنة ١٩٣٠ .

٣ - ابو القاسم الشابي كان يجهد اللغات الاجنبية :

كان ابو القاسم الشابي يجهد اللغات الاجنبية ، وتصذر عليه قراءتها بلغاتها الاصلية فلجأ الى المترجمات ، فقرأ تاريخ الادب الغربية واطلع على فنونها واكثر من قراءة "لامرتين" و "جوته" .

وقد اصبح الماهم بالادبين الفرنسي والانجليزي واسعا فصار يتحدث فيهما كما يتحدث من نال اكبر الشهادات في الادب الغربية . (١)

ويؤكد هذه الحقيقة الدكتور محمد مندور حين يقول "ومن الغريب انني عندما طالعت بمضرقصائد الشابي ، ومقالاته النقدية ، كنت اجزم

(١) ابراهيم ابو رقمة ، حياة امي القاسم الشابي ، مقال ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم محمد كرو ، ص ٢٢ .

بأن هذا الشاعر، قد كان يجيد لغة اجنبية تمكنه ، لا من الالمام
بآداب الغرب، فحسب، بل من تذوقه لتلك الاداب واحساسه بها ، وتمثله
لها ، ثم عدت الى ما كتب عن تاريخ حياته ، فأخذتني الدهشة كل
الدهشة عندما علمت انه لم يكن يعرف اية لغة اجنبية ، وانه تخرج من
جامع (الزيتونه) بتونس ، ثم التحق بكلية الحقوق التونسية ، وتخرج منها
سنة ١٩٣٠ ، ولكنه لم يتعلم لغة اجنبية ، وعندئذ ادركت اننا امام احدي
تلك المبقرات التي لا يستطيع البشر لها تفسيراً ، لانها هبة من الله . (١)

٤ - كان ابو القاسم محبا للمطالعة :

يقول الاستاذ ابراهيم ابو رقعة ، وهو احد من عرف الشابي
كان عام ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين ، وكنت فيه كثير التردد على مكتبة
الخلدونية مساءً غالب كل يوم ، وكنا معشر الرفاق بالمكتبة نفرا بعد فوق
الاصابع ، واعني بالرفاق الذين يندرت خلفهم ، وكان من بينهم فتى يدخل
عليها بخطى سريعة تدل على الحيوية والنشاط ، جهول من الجميع ،
يأخذ كرسبه بقاعة المطالعة ، بعد ان يحيي المطالعين بصوت خافت لا
يكاد يسمعه القريب اليه .

ثم يقف بجانبه قسيم المكتبة ليحضر له ما يأمر بطلبه ، واذ
المطلوب مجلدات ضخام وكتب تحسار في حملها وتقليب اوراقها بسداه
الصفيرتان ، ثم ينكب على دراستها فيرحتفل بمن حوله ، ولا ينصرف
بصره من مطالعة كتاب الا الى غيره ، فكان وقتئذ لسان حال المطالعين

(١) د . محمد مندور ، الشابي روح طائرة ، مجلة المجلة ، القاهرة ع ٦ ،
يوليو ١٩٥٢ . ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم
كرو ، ص ٩٦ .
٢٥ / ٠٠٠

يقول : مالك وهاته الكتب ، وأين لشاب مثلك ان يفهم ما ترمي اليه
وما تحويه اسفارها الضخام ؟ وكان البعض الاخر ينظر اليه نظرة المشفق
الآسن على ضياع وقت هذا الفتى الذى لا يزال الشباب امثاله بالانهج
والطرقات ، وعكذا كان ذلك الفتى شغل المطالعين ، فهم يتحدثون عليه
عمسا ، ولا يخجل احد من ان يشير اليه اشارة الهازيء الساخر . (١)

٥ - مراحل حياته الثقافية :

ويستمر الاستاذ ابراهيم ابو رقصة في حديثه عن الشابي فيقول
"حدثني ابو القاسم عن نفسه ان الطور الاول الذى قطعه من حياته
الفكرية هو التنك والانتقاع الى العبادة ، وانه كان يقضي اليوم أو
اليومين لا يخرج من مصبده ، وربما مكث الزمن الطويل بدون طعام أو
شراب تمذيها للنفس ، وكمرها لهاته الدار ، وكان يؤمن أن يأتيه في
وحدته طائف يخبره بالغيب .

ثم نارق ابو القاسم هذا الطور من حياته الفكرية بمناسبة وروده على
الجامع الاعظم ، وفي يقيني انه بقي اثر بنفسه من تلك التعليقات التي
قررها حجة الاسلام الفزالي ، والشمس البتريزي ، وحيي الدين بن العربي ،
ثم تغيرت عقلية ابي القاسم بعد اطلاعه على الادب المعاصر الذى اتجه
ادباء مصر المعاصرين ، واطلاعه على ادب المهجر ، وتأثره كثيرا بزعميم
المدرسة المهجرية جبران خليل جبران .

(١) ابراهيم ابو رقصة ، حياة ابي القاسم الشابي ، مقال ورد في كتاب دراسات عن

الشابي اعداد ابو القاسم محمد كرو ، ص ٢٢ .

وفي طوره الثالث ، وهو طور النضوج والاستقلال في الرأي والتفكير ، طور الاختراع في الادب والابتكار ، طالع ابو القاسم من كتب الاقدمين آلاف المجلدات وطالع كل ما وصلت اليه يده من كتب المتأخرين ، وله شرف خاص بمطالمة ما يترجمه ادباء المشرق من كتب الغرب ، من مثل ترجمات العقاد وهيكل والمازني .

٦ - تزعمه الحركة الطلابية المنادية بالاصلاح :

كان ابو القاسم الشابي أول رئيس للجنة الطلبة التي نادت بتطوير أساليب التدريس في جامع الزيتونة ، وهو الذي وضع برنامج أول عميل للطلبة بالاصلاح ، أوضحه في الجلسة الاولى للجنة الطلابية التي انعقدت في ٥ رجب سنة ١٢٤٧ هـ ، وحين القي القبض على عدد من الطلبة اظهر ابو القاسم ثباتا وشجاعة متناهية . (١)

٧ - حبه :

اختلف الدارسون للشابي في حقيقة حبه ، فالاستاذ عامر غديرة يؤكد هذا الحب ، وأن الشابي عرفه في رأس الجبل حيث كان يعمل ابوه ، (٢) نجد ان الاستاذ محمد الحلوي ينكر هذا الحب ، ويحاول تحليل ما قاله الشابي فيه من شمر ونشر ، بأنه تعبير لجنس المرأة وجمالها وفتنتها ، لا افتتان وحب لاسراء بالذات ولكن الاستاذ ابو القاسم كرو يؤكد هذا الحب ويقول : ورغم اننا لم نعرف بعد وقد لا نعرف

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته - شمره ، منشورات دار مكتبة الحياة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٠ ، ص ٥٧ ، ٥٨

(٢) عامر غديرة ، محاولة جعل اطار لترجمة الشابي ، مجلة الفكر التونسية س ٥ ، ع ٣ ، ص ١٢ - ٢٥ ، ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم محمد كرو ، دار المقرب العربي ، تونس ، دون تاريخ ، ص ٤٢ - ٥٠ . ٢٧/٠٠٠

ابدا حقيقة هذه المرأة التي احبها ، الا انني اجزم بأن الشابي احب
فتاة معينة ، وانه شفف بهذا الحب الى درجة المهادة والتفديس . (١)

أما الاستاذ ابو القاسم محمد بدرى ، فيرى ان ابا القاسم قد
احبها عذرها وان هذا الحب كان اعظم عزاء وأعظم عرض لكل ما فقده
من حياته المليئه بالآلام والسقام . (٢)

ومهما يكن من امر فان في شعر الشابي ما يؤكد هذا الحب
ويميزه ، لانه شعرا لا بد وان يكون صدر عن قلب عانى الحب فخر
لذته ، وعانى من قوته ، مما ستعرض له حين تتكلم عن الشعر الفازل
عند ابي القاسم الشابي .

٨ - زواجه :

يمد وان ابا القاسم لم يوفق في الزواج ممن يحب ، فقد وردت
في اشعار ابي القاسم قصائد وأبيات تدل عليه موت من احب ، وان موتها
قد هدم قلبه وحطم نفسه ، اسمع اليه يقول :

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الياسمه
واليوم قد امتت كاعماق الكهوف الواجمسه
قد كان لي ما بين احلامي الجميلة جدول

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي ، حياته - شعره ، منشورات دار مكتبة الحياة ،
الطبعة الثالثة ، ١٩٦٠ ، ص ١١٢ - ١١٤ .

(٢) ابو القاسم محمد بدرى ، الشاعران المتشابهان ، الشابي والتيجاني ، دار
المصيارف بصر ، ١٩٥٩ ، ص ٥٧ . ٢٨ / ٠٠٠

يجرى به ماء المحببة ظاهرا يتلسل
هو جدول قد فجرت ينبوعه في مهجتي
أجفان فاتنة أرتينهما الحياة لشقوتي
أجفان فاتنة تراءت لي على فجر الشباب
كمروسة من غايات الشعر في شفق السحاب
ثم اختفت خلف السماء وراء نهاتيك الغيم
نحو السماء وها أنا في الأرض تمثال الشجون (١)

وبعد وان هذه الصدمة بوفاة محبوبته ، قد عجلت بأهله فنهضوا الى
زواجه ، فتزوج قبل ان ينهي دراسته العاليه ، علّه ينصرف عن اوهامه
وتأملاته الحزينه وقبل بالامر ، ولكن زواجه لم يوفق لانه لم يجد في
زوجته تلك الصورة الشعرية الرائعة التي كان يرسمها للمرأة في اشطاره ،
ويتغنى بها في قصائده . وترك الشابي بعد موته طفلين .

٩ - وفاة والده وما سببته من احزان :

كان ابو القاسم الشابي شديد الحبالايه ، ذلك الاب الذي
طالما حنا على ابنه ، واعتنى به ، واهتم بتربيته ، وصحبه الى كل
مكان عمل به ، ازداد تعلق ابي القاسم بالده ، وأصبح ينشد فيه المثل
الاعلى ، ولكن المرض احاق به في صيف عام ١٩٢٩ ، ومع ان الشابي كان
قد بلغ سن الممر العشرين ، الا ان فزعه على والده كان شديدا ،
صحب ابو القاسم والده الى مقط رأسه ، وسهر عليه في ساعات مرضه
العصيب ، واحتضر الاب ، وانترعه الموت من قلب أسرته ، فتألم ابو القاسم

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٢٠ .

وكان المه اشد مما يتألم الناس، ولم يتحدث عن شيء بألم وحسرة
مؤثرة قائمة ، كما تحدث عن لحظات أبيه الاخيرة ، يظهر ذلك
بوضوح في رسالة بعث بها الى الاستاذ محمد الحليوي صديقه ،
يقول :

"أخي الفاضل :

تحية وشكرا

وبعد فاني أود أن احدثك وأناجيك ، وأصبر لان أرافقك وأماشيك
في تلك السبل التي جمال فيها ببراعك ولكن بماذا ؟ أبهذا القلب
الذي كسرته صخور الحياة ؟ أم بهذه النفس التي مزقتها اعاصير
الوجود ؟ أم بهذا الفكر الواهن المخبول ؟ أم بهذا الوجدان التائه
في شغاب الغد الفاضل المرعب ؟

آه ! أيها الاخ ان الحياة لأعول من ان تحتل على مثل هذه
الحال السيئة الاليمة وان خضم الزمان لأرهب من ان يتقحمه المرء ، وهو
كما اراه جبار في تمرده قوى في جبروته وطغيانه .

ها هي الاقدار العتية تعبت بنا نحن البشر الضفاف ، وترميننا
بما لا نستطيع احتماله ولا نملك اعتزاله ، وانسى لنا ذلك ، ونحن اهداف
اللجج الشائره ، واعشاب السيول الهادرة .

لقد ضقت ذرعا بالحياة يا صاحبي - ولا أخالني ان ظلت الخيام
على ما هي عليه الهم - الا ذاهبا الى القبر أو في سبيل الجنون .

انني أحاول ان اخط اليك ما تمسه نفسي من مرارة الوجداع
وهمم الزمن الجائر ، فلا أستطيع الا مثل هذه الكلمات المقطعه التي
لا تكاد تبين عما أكابد من فصص لا أنكر ان قد مرت علي فيما

سلف من عمري أيام أنكد من هذه الايام أو أشد .

في الصباح أجلس الى أبي الذي انهكه المرض وأضعه وأرضه
الالم وأذواه ، وطرفي الى وجهه الشاحب العليل ، والس جفنه الذاعل
الذي أذبله الالم ، وأذوته الحمى والس جسده المتهدم الواهن .
وسمعي الى نفسه المتقطع وتأوهات المتتابعه ، ويهدي به ذلك الرجل
الجليد ، فما أراه كذلك الا وتعلأ صدرى الزفرات ، وتعلأ عيني الصبرات ،
وتنطلق من قلبي المثلج وصدرى المكلم أنات القهر ودعوات الرجاء
الى اله الحياة والموت وبساط النور والظلمات ان يشفي هذا الاب
الواهي الطريح ، وان يشفق على صبيته الصغار الذين ما زالوا واقفين
بباب الحياة .

ويستراى القاسم مخاطبا صديقه مينا شقاءه وعنايه فيقول :
" آه ! رب اشقبتني ، وما أشقيت احدا من عبيدك ، رب فذبتني وأنا
عبدك الذي لم يحدف باسمك ولا كقر بنعماك ، رب رحماك فان عب
القدر علي شديد ، ودد ممي يا صديقي دعوات الى الله ، وصل
بقلبك الظاهر مع هذا القلب الكبير الى ذلك الذي يسمع خفقات
الارواح لملئه يلبي دعواتنا التي نرفعها اليه .

ويصل الالم بأبي القاسم فيحقر الحياة ويحقر نفسه ويستغفرها
فيقول : " ان هذه النفس يا صاحبي لأهون والله من ذره وصل في
اكف الرياح ، وان هذه النفس لأحقر من تلك البعوضه المغتطبه
بطنينها بين المزابل . وان هذه النفس لاشقى بما وضع الله فيهبها
من شعور من كل ابناء الحياه . ان الذره من الرمل لتصبث بها ما
شاءت الرياح ثم تقر الماصفه وتسكن فاذا بها ذرة هادئه ساكنه بين

ذرات الرمال تحلم احلامها الابدية الخرساء ، وتوقد بعيدا عن ضجيج
الدعور وضوضائها ، وأنات الحياة وأرزائها ، أما هذه النفس فانها
طائر معذب مطعون بسكب دماءه فوق الصخور القاسية ، وبين أشواك
السييل دون ان يظفر بعشه الذي عشت به الماصفه ، ولا يسره الذي
شردته النسور .

ويشتد الانفصال بالشابي ، فاذا هو حائر ، يبحث عن سر
الحياه ، ويعلم انه سيدأب في السير لملّه يهتدى أو يدرك حينه
يقول :

" ها أنا مدلج في سبيل الحياة الاقتم ، وهما هي الاشباح
الرهيبة تتحققني وتسممني أناشيد المخربه والازدراء ، ولكني سأظل
سائرا ومنتظرا صباح الحياة . سأظل مرددا على هامه الفايات
والكهوف أغنية الحيره والحنين الى أن يبدو الصبح ، أو يسكتني صراخ
القبور :

يا بني أمي ، ترى اين الصباح ؟ قد تولّى الصمر ، والفجر بعيد
وظنى الوادى بمشهب النواح وانقضت انشودة الفصل السعيد
أين نايى هل تراسته الرياح ؟ أين غايى ؟ أين محراب السجود ؟
يا بنات الليل ، قد غاض الصداح منذ طاشت نشوة العيش الحميد
يا بني امي ، ترى اين الصباح ؟ أوراى البحر ؟ أم خلف الوجود
يا بني أمي ترى اين الصباح ؟

سأظل سائرا في سبيلي ، وسأظل ناشرا في هامه الحقول
الجرداء الصاربه بذور الأسى الس ان يبدو والقمر الجميل ، فتفتتح
الاكمام عن ورود جميلة ضاحكه ، ويغرّد المبلبل وراى الزهور ، سأظل
سائرا في سبيلي متغنيا بهاته الاوجاع والدموع وان كنت أعلم .

ان الدهور البواكبي غنيّة عن دموعي

وان قلب الحياة تخين بالجراح وان راحة الليل ملأى بالدموع الدائمة

ويستمر ابو القاسم في هذه الرسالة التي تبين فلسفة الحياة عنده ، وفلسفة الموت ، فاذا به يسير في شعاب الحزن ، وعميش في كهوف الشقاء ، ولكنه مع ذلك لا زال ينتظر خيط شعاع ينبثه بحقيقة الحياة ، وماهية الموت ،

ويحتذر ابو القاسم لصديقه الذي أدمى فؤاده برسالته تلك التي يعتمر منها الهم ، فيقول :

"غفوا يا صديقي ، فقد آلتك وعصوت نفسك عصوا ، فقد كان يودي ان أسرك وان اسمك افاني السره بدل الحان الالم ، ولكن ماذا أصنع ؟ والمرض لا ينطق بغير الأنين ، والجرح لا يرشح بغير الدماء ، ان الظلم لا تلد الضياء . وان الحزون لا يتكلم بغير احزانه انت صديقي ، وليس لي ان اعدك صديقي حقا الا اذا قاسمتني كسوس الملقم ، وصير الحنظل ، كما سقيتني رحيق العره ومسلسبيل الفردوس .

رغبت اليّ يا صديقي ان أتلو تحياتك وصلوات قلبك على "أصداء الجبل ، وأسرار الغاب والس كدل شحور يغني ، وكدل يائس ينتحب " وذلك عهدى في تحيات الشعراء يا صاحبي فانها لتكون عنده جميله كأرواحهم الملهمة النبيله ولكني يا صديقي لم ابلغ تحياتك الي نفسي القريحة الباكية لانها هي " البائس الذي ينتحب " في سكون الليل ، كلما سكن الي نفسه وتفكر في الحياه . أما الغاب وأساراه والجبل

وأصدائه والشحور وألحانه العذبة الحبيبة ، فان عهدى بها بحيد ،
وان تلك المعادة الالهية الطاهرة وتلك المباح والمناظر والاغاني لا
تنعم بها الا الابصار " الطافحة بالاشعة المكحولة باللبسات ، أمسا
الاجفان التي قرّحها الدمع واذواها الالم فانها قصبه عن تلك المناظر
منفيه في سحون الحياة " .

لقد تركت وفاة والده أثرا عميقا في نفسه ، بل لعل هذه
الوفاة كانت من ابرز الاحداث في حياته ، فهي التي طبعته نفسه
بالحزن ، وأحلت في قلبه التشاؤم واليأس مما صيغ غالب شعره ، بصباغ
قاتم ، لا يكاد يذكر لذّة من لذات الحياة الا ويستدرك ، حين يرى
شيخ الموت ماثلا أمامه ، فاذا به يمتنذر عما سلف ، ويلوّن صورته
بألوان المذاب ، فأنت تحس في كل قصيدة قالها سرارة العيش " .

ولعلّ مما كان يساعد على اشارة لواعج الحزن هذه ، اخوته
الصغار الذميين خلفهم والده وراءه ، فتحمل أعباء الصائمه ، ولم تكن
له تجربة في الحياة قبل ذلك ، ونظم ابو القاسم قصيدة في رثاء
أبيه كلها نواح ونديب قال :

يا موت ! قد عزقت صدري ، وقصمت بالارزاء ظهري
ورميتني من حائق ، وسخوت مني أي سيف
فلبثت مرضوض الفؤاد أجرا أجنحتي بذمير
وقسوت اذ أبقيتني في الكون أذرع كبل ومير
وفجعتني فيمن أحب ، ومن اليه أبث سرّي
وأعدّه فجرى الجميل ، اذا ادلهم على دهري

وأعدّه وردى ، ومزمارى ، وكاساتي وخمري
وأعدّه غايي ، ومحرايي ، وأغنياتي وفججـري
ورزأتني في عمدتي ، ومشورتني في كل أمر
وهدمت صرحا ، لا ألوذ بغيره وهتكيت سترى

ويستمر اهو القاسم مخاطبا الموت ومحاورا ، كأنه وحش يجثم
أسامه ، قد أبدى أنيابه .

يا موت ! ماذا تعني مني وقد مزقت صدري ؟
ماذا تنود وانت قد سؤدت بالاحزان فسكـري
وتركتني في الكائنات أثن ، منفردا باصـري
وأجوب صحراء الحياة أقول " اين تراه قبري ؟ "
ماذا تنود من الشقي بميشه النكد الضـر
ان كنت تطلبني فهات الكأس ، أشربها بصـبر
أو كنت ترقبني فهات السم ، أرشقه بنحـري
خذني اليك ، فقد تبخر في فضاء الهم عمري
وتهدلت أضنان أيامي ، بلا شمـر وزهـر
خذني اليك فقد ظئت لكأسك الكدر الأمـر
خذني فقد اصبحت أرقب في فضاك الجون فجرى
خذني فما أشقى الذي يقضي الحياة بمثل أمرى (١)

ألا ترى كيف بكى الشاعر والده ، لقد أودت الاحزان بأعصابه
ألا تراه منهارا ، انه يبكي بكاء الاطفال ، وكأنني بالشاعر قد نسي

(١) اهو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٩٥ .

أنه ابن عشرين ربيما ، شاب في ريعان العمر ، يجب أن لا يفزع
من الصيبة بمثل ما فزع وأن عليه ان ينهض بالصية ، وأن يرضى بما
قسمه الله . ولكن انه الشاعر المرهف الحسّ

١٠ - الشابي يرفض العمل بالوظائف الحكومية :

آثر الشابي ان يعيش مما تدره أملاك الاسره مما لا يكفل لهم
الاكفاف العيش ، ناجيا بنفسه من اسار الوظيفة ، التي قد تلجم فاه
بقيودها ، وتقتل حريته بروتينها . فلم يلج باب الارتساق من
المناصب الحكومية ، ورضي بحياة بسيطة على رأس أسرته بتوزر .

كما رفض الشابي ان يعيش بشعره ، أو يتكسب به ، لان الشعر
في رأيه قمة الشعور ، وذروة العاطفة ، مما ينزعه عن ولسوج مواطن
الشبهة والريبه .

استمع اليه يقول :

به رضا أمير	لا أنظم الشعر أرجو
تهدي لرب السرير	بمدحة أو رشاش
ان يرتضيه ضميري (١)	حبي اذا قلت شعرا

ويقول :

به اقتناص نوال	لا أقرض الشعر أبيخي
جماله ذا جلال	الشعر ان لم يكن في
يسمى بوادي الضلال	فانما هو طيف

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٣٣ .

يقضي الحياة طريداً في ذلّة واعتزال
ما الشعر الا فضاءً فيه يرفخ خيالي

١١ - مرضه ووفاته :

اختلف كثير من الدارسين لحياة ابي القاسم في مرضه ، فأجمع الكثير منهم على انه توفي بذات الرثه . الا ان الاستاذ - ابو القاسم محمد كرو - يثبت انه قد مات بدهاء تضخم القلب ، واعتمد في ذلك على وثائق ونصوص تركها الشابي مكتوبه بقلمه ، وعلى بحث قام به محمد عامر غديره مستندا فيه على مجموعة من الاسانيد والوثائق المائدة للشابي وأسرته . وعلى اتصالات مع الدكتور محمود الماطرى طبيب الشابي الخاص ، الذي أفاد ان الشابي كان يألم من " ضيق الاذنية القلبية " أي ان دوران دمه الرئوى لم يكن كافيا ، وهذا المرض يجعل سيلان الدم في الشرايين من الاذنية اليسرى نحسو البطنية اليسرى سيلانا صعبا .

كان الشابي ضعيف البنية ، نشأ متنقلا وربما أصابه هذا الضيق وهو لم يزل صغير السن ، ضاق قلبه وضاقت رئته ، فلم يمد يتنفس تنفسا عاديا ، ولكن أهم ما في المرض ، انه يغير نفسية المريض ، وهو أمر هام جدا اذا كان المريض كاتبيا أو أدبيا أو رساما أو موسيقيا ، أي اذا كان فنانا حقيقيا .

منع الاطباء ابي القاسم من ممارسة الجرى واللعب بالكره ومن السباحة ، وقد ترك ذلك الما نفسية عانها الشاعر كلما هم باللعب مع اصدقائه ، وكثيرا ما كان يقول معتذرا عن دعوة لمثل هذا العمل

" هكذا أمر الطبيب "

وكثيرا ما كتب الشابي مذكرات يصور فيها حاله ، وما ينتابيه
من ألم وشقاء .

" أشعر اليوم بفتور في بدني ، وتوسعك في مزاجي ، لا أدري
مأتاه ، وأحس بكتابة عميقة تستحوذ على مشاعري ، وتقيض علي قلبي ،
وتجملني أكثره الكتب والاسفار ، والمحابر والاقلام .

لا أريد ان اذكر اكثر مما ذكرت لاني أرى النوم يغالبني ، والاعياء
يدانمني الى النعاس " .

وقال في احدي مذكراته :

" اعترمت الذهاب الى حديقة " البلفيدير " ، قال احدهم :
انها مقهىة بعيدة عن صخب المدينة وضوضائها ، قريبة من البرية ،
مكتنفة بالاشجار الجبلية والمشاهد المسببة ، فاستهواني الوصف وراقبتهم
وما هي الا ساعة حتى كنا نسبر بين المزارع التي تداعب الشمس
اعشابها ، وكانت مشاهد كثيرة متباينة . هنا صبية يلعبون بين
الحقول ، وهناك طائفة من الشبان الزيتوني والمدري يرتاضون في الهواء
الطلق ، والسهل الجميل ، ومن لي بأن اكون مثلهم ؟

ولكن أنس لي ذلك ، والطبيب يحذر علي ذلك ، لان بقلبي
ضعفا آه ! يا قلبي ! أنت ميمت آلامي ، وستودع أحزاني ، وأنت
ظلمة أسرى التي تطفئ على حياتي المعنوية والخارجية .

وأثبت الاستاذ كروفني كتابه عن الشابي ، رسالة من الشابي
الى صديقه محمد الحلوي ، وفيها يتحدث عن مرض قلبه حديثا ينفي
نبراتها جميع المزاعم والظنون حول مرضه .

" لقد اشتد الضعف على قلبي في هاته العدة الاخيرة ، مما
أوجب معه الطبيب على حرمانني من كل الاعمال الفكرية ، لا فرق بين
تحضير أو مطالعة أو كتابة لا تألم يا صديقي لاخيك ، فان قلبي هو
منبع آلامي في هذا العالم . ومن يدري ؟ لعله سيكون منبعا لمثل
هاته الآلام في عالم آخر . ان قلبي يا صديقي هو منبع آلام هاته النفس
التائهة الممذبة ، وهذا الجسد المعنى المنهوك ، وما دامت أحمل بين
جنبتي هذا القلب الكسير ، وما دامت الحياة تهددني ، ولا ترجم
فانني أشقى أبناءها .

كما يثبت الاستاذ كرونص وثيقه وجدت في المستشفى الذي
توفي فيه الشابي وهذا نص الوثيقة :

"أبو القاسم الشابي تحت عدد ٢٥٦٢

العمر : ٢٦ سنة (ذلك انه يحسب حسابا هجريا من ١٢٢٧ -
١٣٥٣) .

الدين : الاسلام

الحالة : متزوج

المكن : الاربانة

تاريخ دخول المستشفى : ٣ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٤ .

الفحص الطبي : مرض القلب

تاريخ الوفاة : ٩ أكتوبر ١٩٣٤ . (١)

كل هذه الوثائق لا تدع مجالاً للشك في مرض الشابي ، الذي
ألم به لمدة خمس سنوات امتدت من عام ١٩٢٩ - ١٩٣٤ ، وهذه
السنوات الخمس لم تكن فترة مرض الشاعر فحسب ، بل كانت فترة
نضجه وعبقريته التي عاشت صاحبة لمرضه .

* * *

(١) أبو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته - شعره ، ص ٤٥ - ٥٣ .

الفصل الثالث

صاحب شخصيته

١ - التشائم

لمل اهم سمة تغلب على الشابي هي سمة التشائم والحزن ، الذي طالما
عمر قلبه ، وخالط نفسه ، حتى في اللحظات القليلة التي كان يستشعر فيها
لذة الحياة ، فأنت تجده يبكي دائما ، وانا ضحك ، اختلطت دموع حزنه ،
مع دموع سروره . ولكن من اين جاءه الحزن ؟

لقد اجتمعت على الشابي اسباب عدة أدت لقلبه ، وأوجعت نفسه ،
لمل اهمها موت والده ، وكانت هذه اول مصيبة تعلق بنفسه وقد ظهر
ذلك في كثير من الرسائل التي كان يبعث فيها احزانه لنفر من اصدقائه
أو في الخواطر التي كان يكتبها كلما رفرفت روح ابيه حوله ومن ذلك :

"ليس لدي ما اكتبه عن نهاري هذا ، ولصلي خير لي ان اذهب الى
فراشي وأنام لانسى ولكنني ادرى انني لا أنام الا وبأجفاني خيالات
الدموع وأشباح الأسي ، سأرى الى فراشي ، وستجانيني الاحلام الشخصية
المزعجة ، الذكريات الالهمة الدائمة ، ذكريات الامل الضائع والقلب الصرع
سأرى أبي آه ! نعم ذلك الاب الذي شق له النار قبره ، وسوا السراب
عليه ، وبقيت بعده ألم وأسر وأحزن ! أجل سأراه كما قد رأيتيه
في ليالي الكثيرة الخسالية حينما ينطفئ السراج ويشعل الفرقة ظلام
الديج .

أراه على فراش المرض طرحا يتأوه ، وعيناه متألقتين بوميض الحمس
الاليم ، وأراه وهو في حالة ساكنه هادئه يجاذبني في شؤون كئسيرة

بصوت عادي مطمئن ، وأراه وقد اشتدت عليه وضأة الداء ، وأصبح يعالج
ألم الموت ونزاع الحياة ، والطبيب يفحصه ويحقنه بأدوية كثيرة ، ثم يخرج
يائسا مخفيا بأسه عني ، أنا المسكين الصغير . وأراه وقد شمله الموت
براحته فأصبح متزن النفس ، تخاله في حلم النائم الطمئن ، والنساء
يبكين بقلب الليل ، ويملأن فجاج الانشق برنات النباحة ، وأنا كالظائر
الذي يح من الحزن والنحيب ، طورا أقف عند رأسه واخرى عند رجله ،
واخرى عن يمينه واخرى من شماله ، وبيني هذه اجرعه من حين
لآخر جرعا من الماء ، يمازجها دمعي المنهمل وتكاد ترقبها مسنرات
تسيحي ، ثم رأته التفت اليّ وأوقف قلبي ، فحسبته يرنو اليّ فاقتربت
منه قائلا : " أبي أبي ، ماذا تريد ؟ ولكن آه يا قلبي لقد كانت تلك
نظرة الموت وأنا لا ادري ، أنا الطفل الصغير الذي لا يعرف مواقف الموت
حسبها نظرات الحياة ... (١)

هذه بعض خواطره ، تظهر مدى انزعاجه وحزنه وأرقه وان اعلم
ما يجلب الانتباه فيها قوله اكثر من مره - أنا المسكين الصغير - أنا الطفل
الصغير - فانا كنا علمنا ان الشابي قد ولد عام ١٩٠٩ ، وان والده
توفي عام ١٩٢٦ ، نرى ان الشابي كان قد بلغ المشهور عشية وفاة والده ،
ولكن مصر على انه لا زال طفلا صغيرا مسكنا ، لقد عزمته الاحداث ،
فتصافرا امام نفسه ، أولم تمرره التجارب ، فهزم امام اول تجربته ، لقد
بكى الشابي بكاء اعترف انه بكاء نساء " مات ابي وظلمت انتحب وأنسج
وأبكي بكاء النساء " ...

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته شعره ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦

قد تكون هذه الحادثة هي التي فجرت الحزن في نفس الشاعر ثم
توالى الاحداث لتضيف حزنا على حزن ، واذ بهما تطبع نفسه بالسواد .
ثم فجع الشاعر بحبيبته ، ماتت وهي برعم لم يفتح ، ماتت وعسو
يشتاق ان ينضم بظلمها ، فجرت في حناياه بواعث العذاب ، وانطوى
قلبه على أسى لا سهيل فيه الس عزاء ، وأصبح عدوه الموت ، يجد فيه
وحشة وهولا وفراغا واكتئابا ، استمع اليه يقول :

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الباسمة
واليم قد أمت كأعماق الكهوف الواجمة
قد كان لي ما بين احلامي الجميلة جدول
يجرى به ماء المحبة طامرا يتسلسل
هو جدول قد فجرت ينبوعه في مهجتي
أجفان فاتمة ارتبها الحياة لشقوتي
أجفان فاتمة تراوت لي على فجر الشهاب
كمرسة من غانيات الشمر في شفق السحاب
ثم اختفت خلف السماء وراء هاتيك القيم
حيث المذاري الخالذات بمن ما بين النجم
ثم اختفت أوام ! طائفة بأجنحة المنسون
نحو السماء وعا انا في الارض تمثال الشجون (١)

وفي قصيدة - ماتم حب - يلمح على قلبه بالمزيد من الحكاء ، لان
حبيبته ماتت ، ويلمح على عينيه ان تذرف الدمع مدرارا لتغسل جدث الحبيبة

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٦٩ .

يقول :

مات من تهوى ، وهذا اللحد قد ضم العبيب
فابك يا قلب بما فيك من الحزن المذهب
ابك يا قلب وحيد
ذل قلبي
مات حبي
فأذرفي يا قلة الليل ، الدراري عسبرات
حول حبي ، فهو قد ودع آفاق الحياة
بمد ان ذاق اللهب
واندبسه
واغسله
بدموع الفجر ، من اكواب زهر الزنبق
وادفنيه بحلال ، في ضفان الشفق
ليرى روح العبيب^(١)

فان كان ابو القاسم الشابي ، قد سئم الحياة وقلاهما ، فما ذاك
الا بسبب فقدته من احب ، وانه حين يكس لم يبك مجدا اثملا ضاع ،
أو عمرا تصرم ، انما يبكي حبا ، كان يملأ عليه حياته .

لست يا أمي ابكيك لعجد او لجناه
فأنا احتقر العجد وأوهام الحياة
أو لعمر ، بلغت منه الليالي منتهاه

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٢١ .

وتلاشتني خضم الزمن الطافي قواه .
فأنا ما زلتني فجر شبابي وضحاياه
انما ابكيك للحب الذي كان بهـا
يملاً الدنيا فأنني سرتني الدنيا أراه
فأنا ما لاح فجر كان في الفجر سناه
وإذا ما غرد طير كان في الشد وحده
وإذا ما ضاع عطر كان في العطر شذاه
وإذا ما رف زمر كان في الزمر صباه
فهو في الكون جمال يملك الافق ضياه
عقري البحر مسراج وديع في سماه
ينج الاحلام في قلبي بأشواق الحياه (١)

احب الشبابي وتغاني في حبه ، رأى ان القسرام أسمى حبة يهبها الله
للشاعر ، وماذا يكون الامر لو نضب معين الحب ، وجف ورده ، فما الحياة
لا انفاس الحب ، وليست الا العانما منغوسه موقمه على قيثارته السحرية ،
والحب في عرفه نجمة للأمة للمدلج الساري في فاعب الظلام . فإنا
احتجبت النجمة ، وتحطمت القيثارة ، وجف الورد ، بكى ابو القاسم وتألم .

ثم ينجع ابو القاسم بقلبه الذي اصابه المنيح المستعصي وعوفي ريمان
الشباب وميعة الصبا ، فشكا هذا الداء الذي استقر في قلبه ، وأقضى مضجعه ،
وهدد حياته ، لم ينصر ابو القاسم هذا الداء الذي يصارعه ويسير به
سريما الى غلام الفناء ، فكان يتشبه بالحياة ، ويود لسو يرتشف كأسه
بها ، كما يرتشف غيره ممن عم في مثل عصره ، ونراه يشكو السس
الشر هذه الصلة .

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

يا شمر قلبي مثلما تدري شقي منكم
فيه الجراح النجل يقدر من مفاوره الدم
جمدت على شفته ارزاء الحياة الصابنة
فهو التعمير به مرارات القلوب البائسة
ابدا ينسوح بحرقه بين الاماني الهاوية
كالبلبل الفريد ما بين الزهور الذائبة

ولكنه يعزى قلبه ، ويطلب منه الصمود امام مشكلات الحياة يقول :

يا قلب لا تسخط على الايام فالزهر الهديع
يصفي لصحات العواصف قبل انغام الربيع
يا قلب لا تقنع بشوك اليأس من بين الزهور
فورا آلام الحياة عذوبة الالم الجسور (١)

وعكذا نجد ان علة الشاعر كانت هي الاخرى من وراء تشاؤمه ، وان
اصابته في قلبه كانت من اهم اسباب عزوفه عن الحياه والناس ، فالرجل
المرىض الجسم فالحا ما يكون مريض الاعصاب ، فيشور لكل شيء ، ويحتد لاتفه
الاسباب ، وقد يكون هذا المرض او النقص الطبعي في الشخص سببا في ان
يجعله يضيق بالحياة بل ويكرهها ، فالمرض أو النقص الطبعي ثم الاحساس
بهذا النقص او الشعور والتفكير في ذلك المرض ، هما اللذان يتسلطان على
الانسان ، وهما يستطهما ان يخلقا من الهاديء الرزين انسانا شائسا
تسردا ، هذه الثورة وهذا التمرد قد يظهران في القول ، كما يظهران في
العمل ، فليس غريبا ان يضيق الشابي بالناس وان يتبرم بالحياة ، بل ليس

كثيرا على شاعر رقيق الاحساس ، يشعر في قرارة نفسه بصاحبه ويفكر فيه دائما ، ليس كثيرا على شاعر وعب شاعرية خصبة كالشاهي برقب انمول نجمه شيئا فشيئا ان ينظر الى الجانب الاسود في الحياة ، فاستمع اليه يخاطب حبيبته :

فافهمي الناس انما الناس خلق مفسد في الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاش كالليل فربها في اهل هذا الوجود (١)

ولعل من الاسباب التي ساعدت على ازكاء نار الحزن في نفسه ، هو الحال السيئه التي كان يعيشها الشعب التونسي تحت ظلال الخسوف والندل والهوان التي كان يسومها ايها المتصمر الفرنسي ، حاول الشاعر ان يهتف العزيمة في النفوس فدعا الى قارعة الاحتلال ، ومحاربة التخلف والرجعية ، ولكن كلماته نهبت ادراج الريح ، يدل انه هجوم هو قبل ان يهاجم التخلف ، واتهم بالمروق والخروج على المجتمع .

بالاضافة لكل ما تقدم مما يهتف الاسى والحزن في النفوس ، كان للشاعر نفس حساسة ، تعمل فيها الاحداث عملها ، وتحفل بحقير الامور وعظيما .

واليوم احيا مزهق الاعصاب ، مشبوب الشمور
متأجج الاحساس ، احفل بالعظيم وبالحقير (٢)
تمشي على قلبي الحياة ، وبزحف الكون الكبير
هذا مصيري يا بني الدنيا فما اشقى المصير

ويسرى احد النقاد ان شعور الشاهي بالامتياز قد اوعمه ان لا صواب الا في جانبه ، وانه الوحيد البصير بمعاني الحياة ، فانتهى الى

(١) ابو القاسم الشاهي ، افاني الحياة ، ص ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

الكفر يحاضر الانسانية وماضيها ومستقبلها ، وانكار قيمة الحياة (١)

وكان الشابي برحافة حسه ، وصدق تحمسه لمشاعر الناس من حوله يتألم مع كل ذي ألم ، فهو يباك مع اليتيم ، مع الام التي فقدت ابنها ، مع الفقير المعدم ، لم ير الشابي في الحياة سوى العصابات ، الموت ، القسر ، السامات ، كأنه لم ير اشراقاً الدنيا ، وانها تعطى وتأخذ ، وتمنع وتمنع ، لم ينظر الى الموت نظرة موضوعية على انه النهاية الحتمية لكل حي نباتاً كان أم حيواناً أم انساناً .

كم بقلب الظلام من انه تهفو لخصات صبية ابتسام
ونشيج مضم من فتاة انهضتها قوارع الايـام
ونواح يفيض من قلب ام فجمت في وحيدها البسام
وانين من معدم ذي سقام ، عضة الدهر بالخطوب الجسام (٢)

وفي الابيات التالية يجأر الشاعر بالشكوى الى الله ، مبيناً ما انتابه من احداث وما عرا قلبه من آلام :

يا اله الوجود ، هذه جراح في فؤادي ، تشكو اليك الدواهي
انت انشأتني فربها بنفسي بين قومي في نشوتي وانتهاهي
انت عذبتني بدقة حسي وتمقتني بكسل الدواهي
بالاسى بالسقام بالهم بالوحشة ، بالياس ، بالشقا المتناهي

(١) خليفه محمد التليبي ، الشابي وجبران ، قال جاء في كتاب ابو القاسم محمد كرو - دراسات عن الشابي - دار النشر العربي ، تونس ص ١٠٤ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٧٣ ، ٧٤ . ٤٨ / ٠٠٠

بالمناها تفتال اشهب امانى وتذوى محاجرى ، وشفاهى
واذا فتنة الحياة وسخر الكون ضرب من النمام الزاهى
يتلاش فوق الخضم : ويبقى اليم كالصهد مزهد الامـواه (١)

فالشاعر يلجأ الى الله شاكياً ما أصابه ، شكا وحدته وتنكر شعبه
له ، شكا اليه رقة احساسه ، فاذا هو كوعرة عبّاد الشمس ، يتأثر بكل
ما فى جوه المادى والمضوى ، مهما كان المؤثر قويا او ضعيفا . شكا
الى الله المناها التي تخطف اعزاز احبائه والسده ، وحببته . . . وينتهي
بعد ذلك ليقرر ان فتنة الحياة وجمالها ليست الا كسحابة صيف شد
ما تنقشع .

كره الشاهى واقع الناس لانه كان يحب الحياة حبا مثاليا رفيعا
يحب الناس حبا خالصا ساميا ، ويرنو الى الكون وما فيه بعين ملؤها
الشوق الصادق ، كره واقع الناس المؤلم ، كره فيهم الملق والنزف ، بقدر
ما احب لهم الصدق والاخلاق ، ودعاهم الى الاخذ بأسباب القوة ، والحمد
عن التخلف والخور ، ولما لم تجد دعواه اننا صاغية ، بل لان دعواه
قوبلت بالاستهجان والاتهام بالمروق ، نعى على الحياة اهلها ، وسئم منها
واتجه الى عالم المثالي عالم ما وراء الطبيعة عالم الخلود والابدية .

ان من اصفى الى صوت المنسون
وصدى الاجساد
ليس تستهويه الحسان الطيور
بين ازهار الربيع الساحرة

(١) ابوالقاسم الشاهى ، اغاني الحياة ، ص ٩٨ ، ٩٩ .
٤٩ / ٠٠٠

وابتسامات الحياة الساخرة

عن جلال اللسه (١)

ويقول :

عجيب ان يفرح الناس في كهـ ن الليالي بحزنها المشوب
ان خمر الحياة وردية اللون ، ولكنها سسم القلوب

بالاضافة الى ما تقدم من دواعي الحزن التي عاشت في قلب الشاعر
يكن هناك سبب آخر ، هو تأثر الشاعر بقراءاته لكبار أدباء الرومانسيه
من امثال بودلير ، ودي موسين ، ولامارتين ، وهو جو ، فطالما قرأ
ترجمات لاشعارهم وانتاجهم الادبي في مجلة أبولو ، التي انتسب اليها ،
ونشر شعره فيها ، ومن المعروف عن هؤلاء الرومانسيين ، مفاالاتهم في وصف
مشاعرهم ، وعم يظنهم مبالون الى الحزن والاسى ، والهروب من الواقع ،
وهم كذلك شديدوا الاحساس بذواتهم ، يشعرون بتفردهم ، وانهم يمشون في
مجتمع لا يقدر نبوغهم وعبقريتهم ... فهم تائهون يبحثون عن الحقيقة فلا
يجدونها :

يا صميم الحياة اني وحيد	مدلج تائه فأين شروقك ؟
يا صميم الحياة اني فؤاد	ضائع ظام فأين رحبتك ؟
يا صميم الحياة قد وجم الناي	وفام الفضا فأين بروقتك ؟
يا صميم الحياة اين اغانيك	فتحت النجم بضمي مشوقك ؟ (٢)

وفي قصيدته - صوت تائه - لا يرى في الحياة شيئا يستحق ان يعيش
من اجله الانسان ، فأعراس الحياة ماتم ، وجناتها جحيم ، وشرايها

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٢ .

فاسد سموم ، ومويقاها انين ٠٠٠ ففلاها ومجرها ونشد الحياة في عالم
سماوى تتحق في المسرة .

قضيت ادوار الحياة مفكرا في الكائنات معذبا مهموما
فوجدت اعراس الوجود مآتعا ورأيت فردوس الزمان جحيما
وحضرت مائدة الحياة فلم اجد الا شرابا آجنا مسوما
ونفضت اعماق الفضاء فلم اجد الا سكونا متعبا محسوما
تتهخر الاعمار في جنباته وتموت اشواق النفوس وجوما
ولمست اوتار الدهور فلم تفض الا انينا ، داما ، مكلوما
يتلو اقايعصر التماسه والاس ويصير افراح الحياة هموما
شردت عن وطني السماوى الذى ما كان يوما واجما غموما
شردت عن وطني الجميل ٠٠ أنا الشقي ، فعشت مشطور الغواد يتيما
في غربة روحية ، مملونة اشواقها تنضي عطاشا هيما
شردت للدينها ٠٠ وكل تائه فيها يروع^{ررع} راحلا ومقيما
يدعو الحياة ، فلا يجيب سوى الردى ليدسه تحت التراب ربيما
وتظل سائرة كأن فقيدها ما كان يوما صاحبا وحيما
يا ايها السارى لقد طال السرى حتام ترقب في الظلام نجومنا
اتخال في الوادى البعيد المرتجى عيها^ع ! لن تلقى هناك مروما^(١)

هكذا هم الشعراء الرومانسيون يفسفون الامور ، وفق مشتبهاتهم ، لا
يرجعون الى الواقع ولا يحتكمون الى العقل ، بل للمخاطفة وحدها . انظر
الى ابني القاسم بقول :

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨١ ، ٨٢ .

وتظل سائرة كأن تقبدها ما كان يوماً صاحباً وحميماً

يأخذ على الحياة وابناء الحياة سير قافلتهم • بعد ان يموت احد هم
وعلى يرهد الشاعر ان تتمطل الحياة ، وان تقف عجلتها ، عند موت احسد
ابنائها ؟

ويرى الشاعر الرومنيس ان الاقدار تقف ضده ، وان الرياح تجرى بمالا
تشتهي سفنه ، وانه مظلوم سي الظالم ، تلمسه الاقدار بأسواطها ، دون
ذنب جناه .

مالى تمذهني الحياة كأنني خلقى فريب ؟
وتهد من قلبي الجميل ؟ فهل لقلبي من ذنوب ؟
واذا سألت لم الوجود ، وكله عم مذنب ؟
قالت نوايس السماء قضت ، وما لك من عروب ؟
آه على قلبي ! وان شقيت كشقوته قلوبا
انقس من الموج الوضي ، ومن نشيد المنديل
لم تقترن اثم الحياة وكان مأواها المهبب
مهما تضاحكت الحياة فانني ابدا كحبيب
اصغى لاجاع الكتابة ، والكتابة لا تجيب
في مهجتي تتأوه البلوى ، ويحتلج النحب
اني انا الروح الذى سيظل في الدنيا غريب
ويظل مضطربا باحزان الشبية والعشيب (١)

(١) ابي القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨٣ ، ٨٥ . ٥٢ / ٠٠٠

الرومانسيون امام واقعهم المر ، يحاولون ان يعرفوا اسرار الطبيعة
والحياة ، ولكنهم لا يصلون الى الحقيقة ، بل يثيرون الاسئلة ولا يعثرون على
اجابات لها ، فتبقى الحقيقة غائمة دونهم ، لا يستطيعون لها ادراكا
امام كل هذا ينسحبون من الحياة انسحاب المهزوم ، يفتنون ذواتهم التي
يشعرون بتفرد لها وعمقيتها ، وهذه الذاتية الرومانتيكية لها خصائص تتجلى
على الاخص في عدم الرضا بالحياة في عصرهم ، وفي القلق امام عالمهم
وما يمج به من احداث وفي الحزن الغالب على انفسهم في كل حال
دون ان يجدوا له سببا ، وهذه الحال ناشئة من عدم توازن القوى النفسية
عند هؤلاء الذين طغى الشعور عليهم بذات انفسهم طغيانا دفعهم دفعا
الى القمة على كل ما هو موجود ، والتطلع الى ما لا يستطيعون تحديده ،
خاصة في عالم السياسة والخلق والادب .

ولهذا يعتمد الرومانتيكيون من الواقع بالانطواء على انفسهم ونشدان مثال
لهم ، فتتسع الهوة بينهم وبين الواقع وما ينشدون من مثال ٠٠٠ ويطنس
عليهم الشعور الفردي على الرغم من انه سيظل دائرا حول معان انسانية
عامه ، من شأنها ان تجيب هؤلاء الرومانتيكيين اليها ، وتقربهم الى
نفسنا (١)

ومن هذا قول ابي القاسم الشابي داعيا اعتزال حياة الناس :

وان اردت قضاء العيش في دعة شعيرة لا يفشى صفوها ندم
فاترك الى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش اوسموا
واجعل حياتك دوحا مزهرا نصرا في عزلة الغاب ينمو ثم ينعدم

(١) محمد فتحي غلال ، الرومانتيكية ، دار نهضة مصر للصح ، دون تاريخ ، ص ٤٩ .

وأجمل ليالك احلاما مفردة ان الحياة وما تدرى به حلم (١)

ثم يقول :

أود ان احيا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضحق عن احلامي
الا اذا قضمت اسبابي مع الدنيا وعشت لوحديتي وظلامي
في القاب في الجهل المعيد عن الورى حيث الضيعة والجمال الشامي
واعيش عيشة زائد متنك ما ان تدنس الحياة ندام
هجر الجماعة للجمال ، تورعا عنها ، وعن بطن الحياة الدامي (٢)

من كل ما فات نلاحظ ان الشابي شاعر الحزن والاسى ، فلقارىء في ديوانه يجد كلمات الحزن وصور الاسى تحصر الديوان ، فقد احصت السيدة نعمات احمد فؤاد الالفاظ التي تضمنت معاني المذابح في ديوانه فوجدتها ١١٨ لفظة من مثل ، شجون ، شقاء ، ابتساس ، نواشب ، الهلها ، الرزايا ، الارعاق ، لظى اليأس ، الهول ، الهول ، ضجيج ، كئيب ، غريب ، انين ، حزنين ، حنين ، اغصان ، حيران ، النحيب ٠٠٠ الخ . وان ديوانه احتوى على ٦٢ لفظا من اسماء الدهر . كاللهالي ، الدهر ، الايام ، الزمان ٠٠٠ الخ .

اما الجن فقد ظهرت في ديوانه خمس مرات . والديناجير ، والظلماء واخواتها تتوالى تباعا في ثنايا القصيد ، ولقد ضاق الشاعر نفسه بالظلام وتهاويله فاشرب الس النور ، وهتف به شة وتسع عشرة مرة مرودا هذه الالفاظ : شعله ، نور ، الفجر ، الضياء ، شمع ، لألاء الصباح ، الضحى (٣)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٣) نعمات احمد فؤاد ، شعب شاعر ، ابو القاسم الشابي ، مؤسسة الخانجي بصر ١٦٥٨ ،

وحاول الاستاذ شوقي ضيف ان يقف على اسباب حزن الشاعر فقال
" كان احساس ابي القاسم الشابي حادا ، وجمالته حدته محبا للحياة صبا
بها ، وشعر برؤوس افعاع تمتد اليه في طريقه ، فتمنمه من السير بل
ترده الى داره ، ان لم يكن الى فراش علة ، فرجع محزوننا بجران ياله ،
والكتابة قد ملأت نفسه ، وملأها ايضا الاحساس الدقيق بالكارثة ، وصا
يقتظر من موت عاجل محتوم .

ولم يجد امامه ما يشير لواجه سوى ناي شعره ، فأخذ يشدو عليه
اغاني مشجيه ، نظمها والدموع تنهمل من عينيه ، وعي لذلك تعد اشجن
اغانيها في العصر الحديث ، لان صاحبها يملها بدموعه وهو يكتبها ، ولانها
تصور الما حقيقيا ، بل لان صاحب هذا الالم كان حاد الحس ، فقط لا
على الالفاظ التي تمثل ألمه ، وانما على الابر التي تلسع ، وحس الابر في
نيران قلبه ، فاصبحت تكوى وتلدع . (١)

ويرى الاستاذ محمد الحلوي ان ابا القاسم مرنى تشاؤه في احوار
شلاثة ، الظور الاول : عود صور التشاؤم القاتم ، وفي هذه المدة كان ينحو
نحو جبران ويكتب على مظالعة العصرى انكباها كليا ، فلما نظم اول اشعاره ،
كان مفرطا في اليأس والتشاؤم ، وكان هذا التشاؤم من النوع السهل الرخيص ،
الذى يشاركه فيه كثير من صفار الشعراء وقليديهم ، فهو تشاؤم لا يعرف
بعثه ، ولا الداعي اليه ، وعلة تردده وسبب وجوده .

الظور الثاني : نراه متشاؤما ، ولكن تشاؤه في هذه المرة مصحوب
بالتمليل ، وحزنه بعثه الحيرة ، وكآبته تعتمد على استمرار تساؤله

(١) شوقي ضيف ، دراجبات في الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، بدون تاريخ ،

الطبعة الثالثة ، ص ١٤٤ .

وحيرته وتطلعه الى اليقين .

الطور الثالث : يبدأ من اضيافه في عين دراعم ومن هنا اتجه شعره وجهة جديدة (١) .

ولكن الاستاذ الحلوي لم يوضح عنده الوجهة الجديدة ، وارى ان الشابي في حيرته وتساؤلاته لم يعمل الى فلسفة حقيقية يملل بها سر هذا التشاؤم ، بل بقي حائرا .

اما الاستاذ ابو القاسم محمد بدرى فيرى ان نظرة الشاعر للحياة هي التي عكست على نفسه الصورة القاتمة المزوجة بحلو ومر ، وشهد وصاب ، ولا مزية في ان فلسفة الشابي في كل الوان شعره مستمدة من احساسه بذاته القلقه ، ونفسه الشائرة على ما في الكون من نظم وأوضاع ، وقد يجيب الشاعر احيانا على حيرته بما يوضح هذا الاحساس وبين عنده النظرة القاتمة الحزينة (٢)

ما عنده الدنيا الكهبة ويلها حقت عليها لعنة الاحقصاب
الفجر يولد باسم متهدلا في الكون بين نجنة وضباب

اما الاستاذ عمر فرغوع فيرى الشابي شاعرا متشاؤما عابسا يحاول ان يزين شعره احيانا بشيء من روح الامل والتفاؤل ، الا انه كان متقلبا بين الامل واليأس ، وكان اليأس عليه اغلب (٣) .

-
- (١) محمد الحلوي ، مع الشابي ، سلسلة كتاب البحث ، تونس ١٩٥٥ ، ص ٧٨ .
 - (٢) ابو القاسم محمد بدرى ، الشاعران المتشابهان ، ص ٢٠ .
 - (٣) عمر فرغوع : شاعران معاصران ، ابراهيم طوقان ، ابو القاسم الشابي ، ضمه اولى ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ١٦٠ .
- ٥٦ / ٠٠٠

ولكن عدل كان ابو القاسم دائم التشاؤم ؟ الم تعمّر الفرحة قلبه
قط ؟ هل خلا ديوانه من قصائد غنى فيها للحياة ؟

اذا كان الشابي كثير الجرم بالحياة ، الا انه مشفق عليها دؤوب على حسب
اعلمنا ، اذا عمره اليأس مره ، يعاوده الفأل مرات ، يوقن ان الظلام محقبة
اشراق ، وان الليل لا بد ان يحويه تنفس الصباح .

ان ذا عمر ظلمة فيراني من وراء الظلام شمت بها
ضيق الدمر مجد شعبي ، ولكن سترد الحياة يوما وشاحه

وهو يدعو الى الاقبال على الحياة والدأب في السعي عن اجل النهوض
بها ، يقول :

الا انه يفر . وسرفني سبيل الحياة ، فمن نام لم تنتظره الحياة	ولا تخش مما وراء التلاع
فما ثم الا الضحى في عباه	والا ربيع الوجود الضمير
يتشرز بالورد ضاقي رداه	والا اريج الزعور الصباح
ورقصر الاشعة بين المياه	والا حمام المروج الانيق
يخرد منطلقا في غناها	الى النور فالنور عذب جميل
الى النور فالنور ظل الاله (١)	

ويدعو الشاعر الى التصليق بالحياة والعمل بجهد في سبيلها ، فهسي
ليست اعلا الا للمكافحين في سبيلها المنافحين عنها .

ومن لم يعانقه شوق الحياة	تبخرفني جونا واندر
فويل لمن لم تشقه الحياة	من صفة العدم المنتصر

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨٨ .

كذلك قالت لي الكائنات وحداثتي روحها المستتر
وقالت لي الارض لما سألت: "أيا أم نسل تكرميين البشر"
"ابارك في الناس اعدل الضموح ومن يستلذ ركوب الخطر"
"والمن عن لا يعاشي الزمان ، ويقنع بالمشير عشر الحجر"

وإذا كان قد دعا الى الضموح وركوب الخطر في سبيل الرقي بالحياة
والارتفاع بها ، فإنه يدعو ان الحياة لا تستقيم من ابنائها الاكل من سلا
النشاط نواده ، وعمر قلبه بحبها .

هو الكون حي يحب الحياة ، ويحتقر الميت ، مهما كبر
فلا الافق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزعر
ولولا امومة قلبي الرؤم ، لما ضمت الميت تلك الحفر
فويل لمن لم تشقه الحياة ، من لعنة الصدم المنتصر

ويؤمن الشابي بقوانين الحياة ، وان البقاء للافضل ، وان الحياة دائمة
المسير ، لا تنتظر المتخلفين المتعاسين .

ورن نشيد الحياة المقدس في هيكل ، حالم ، قد سحر
واعلن في الكون : ان الضموح ، لهيب الحياة ، وروح الخفسر
إذا ضحت للحياة النفوس فلا بد ان يستجيب القدر (١)

احب ابو القاسم الحياة أحب لذائذها ، احب فيها المرأة الجميلة التي
تبلت قلبه ، واقامت في نفسه تسمع وجهه ، انها لمست كالحياة ولكن
الحياة نفسها .

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٢٠ .
٥٨ / ٠٠٠

انت انت الحياة في قدسها السامي ، وفي سحرها الشجي الثريد
انت انت الحياة ، في رقة الفجر ، في رونق الربيع الوليد
انت انت الحياة كحل اوان في رواء من الشهاب جديد
انت انت الحياة فيك وفي عينيك آيات سحرها الممدود (١)

واستمع اليه يخاطب محبوبته :

ظهرى يا شقيقة الروح ثرى بلهيب الحياة ، بل قبليني
ان نار الحياة والكوش المنشود في ثرك الشهي الحزين
فهو كأس سحرية لرحيق الخلد قد صاغها اله الفنون
قبليني واسكرى ثرى الصادي وقلبي ، وفتنتي وجنوني
آه ما اعذب النرام واحلى رنة اللثم في خشوع المكون (٢)

ولكن بعد ان عرضنا لاشعار الشابي الهارب من الحياة المتشائم عنها ،
وتلك التي يقبل فيها على الحياة ، ويدعو للسمي حيثما من اجل النهوض
بها ، عمل يعني ذلك تناقض ابي القاسم ؟؟ وانه يمشر لحظته ؟؟ ان
سرته لحظة مدحها ، وان ساءته عندهم بكاء وشكاها ؟؟

لست من القائلين بذلك ، بل ارى ان حب الحياة عند ابي القاسم هو
الامل ، لانه طالما غناها ، وطالما دعا شمه ان ينهضوا بها ، وان جاءت
شكواه من العينة مره ، فما ذلك الا لانه يحرس عليها ، الا يتعن احدنا
الموت في احدى ساعات ضنك وسورة فضه ؟ ولكن لا يلبث ان يتخذ من
ذلك حافزا ، يدفعه للتخلص مما عوفيه ، اما بالعداواة من علة اصابته ،

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

او متغلط من كهوة أمتته ، كل ذلك لانه يحب الحياة ويكره الصدم ،
 هكذا كان ابو القاسم احب الحياة لشعبه ولنفسه ، فلما لم يصغ له الشعب
 ولما لم تبرأ نفسه من آلامها ، سئم الحياة من حيث احبها ، ولكنه كان
 يقام السأم ، ويحارب اليأس ، لهماود العمل من جديد ، ويكرر النداء
 بضرورة العمل الجاد من اجل الحياة والسوق بها ، مات ابو القاسم بمنزلة
 اميا قلبه ، ولكنه مات ونفي قلبه امل ان يحيا الشعب الذي ربط حياته
 بالارادة الجهارة التي ستترفم حتى القدر على الخضوع .

• كان قلبه العليل واسما جيبا راقويا .

يا قلب كم فيك من كون قد اتقدت	فيه الشمس وماشت فسوقه الامم
يا قلب انك كون عد عشر عجب	ان يسأل الناس عن آفاته يجعوا
كانك الابد العجول . . . قد عجزت	عنك النهى ، واكهرت حولك الظلم
تضي الحياة بماضيها وحاضرها	وتدعب الشمس والشيطان والقسم
وانت انت الخضم الرحب لانفرج	يقف على سناحك الضافي ولا الم
تهلوا الحياة فتليها وتخلمها	وتتجد حياة ما لها قدم
وانت انت شباب خالد نضمر	مثل الظهيرة ، لا شيب ولا عمر (١)

• لم يكره الشامي الحياة فهي موسيقى يطرب لها .

احمني لموسيقى الحياة ووحبها	وانيب روح الكون في انشائي
واجمع للصوت الالهي ، الذي	يحيي قلبي ميت الاصداء
النور نسي قلبي وبين جوانحي	فعلام اخشى السير في الظلماء (٢)

(١) ابو القاسم الشامي ، اغاني الحياة ، ص ١٥٦ ، ١٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٩ ، ١٨٠ .

واحسب الشابي الحياة حتى صرح بنفسه انه عبد لها ، وان
التشائم من الحياة ورفضها هو ضرب من الهذيان والبهتان .

ما كنت احسب بعد موتك يا ابي	ومشاعري عمياء بالاحزان
اني مأظماً للحياة واحتسي من	كأسها المتوهج النشوان
واعود للدنيا بقلب خافق	للحب والانفراج والالحيان
ولكل ما في الكون من صور المنى	وغرائب الاعواء والاشجان
حتى تحركت السنون واقبلت	فتن الحياة بسحرها الفتيان
فاذا انا طفل الحياة المنتشي	شوقا الى الاضواء والالوان
وانا التشائم بالحياة ورفضها	ضرب من الهذيان والبهتان
ان ابن آدم في قرارة نفسه	هد الحياة الصادق الايمان (١)

وتكاد تدهش عندما تسمع الى ابي القاسم وهو يحدثك عن

(السعادة) وعن مواصفاتها ، وكيفية تحقيقها ، فهو يرى ان السعادة لا
تتأتى لفرد الا اذا ابتسم امام كل مشكلة ، وضحك لكل معضله ، فالسعادة
بמידة التحقيق ، ولا يمكن ان يحياها انسان الا بالابتسام للحياة مسراتها
واحزانها .

خذ الحياة كما جاءتك مهتما	في كفيها ، الفار او في كفيها العدم
وارقص على الورد والاشواك مشدا	فنت لك الطير ، او فنت لك الرجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضى	والجم شحورك فيها انها صمم
فمن تألم لم ترحم مضاعته	ومن تجلد لم تهزأ به القمم
هذي سعادة دنهاننا فكن رجلا	ان شئتها - ابد الأباد - بيتهم (٢)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

ابو القاسم الشابي الذي علمنا كيف نبكي ، يعلمنا كيف نضحك ،
يسل كيف نسمد

ولكن رومنتيته لا تفارقه حتى وهو يعلمنا كيف نسمد فهو
يدعونا بالاضافة الى ما تقدم ان نهجر الناس ، نهجر نظامهم الاجتماعي ،
نهجر نظامهم الحضاري ، لنسكن الشاب ، ونهتمد عنهم .

وان اردت قضاء العيش في دعة شعوية لا ينفي صفوها نسدم
فاترك الى الناس دنيا علم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش اورسما
واجعل حياتك دوحا مزهرا نظرا في عزلة الشاب ينمو ثم ينعدم
واجعل ليايك احلاما مخرودة ان الحياة وما تدوى به ظلم (١)

وبعد فنحن الان امام شاعر يكي فأبكانا ، وحزن فأحزننا ،
ضحك للحياة وغنى لها ، وعلمنا كيف يمكن ان نعيش فيها بتحديدنا ،
علمنا كيف نسمد وما هي سهل السعادة ، فهل نحن امام شخصية
متناقضة ؟

أيهما أصل في نسبة الشابي حبه للحياة ، ام ينضه لها ،
لعل فيما قاله الدكتور شوقي ضيف ما يجيب على تساؤلنا " واكبر
الظن ان ليس هذا الحب الذي يرثيه مع قلبه الاحبه للحياه ، وما
يتألق في بصره من جمالها الذي يستطع على الاشياء والاشخاص مسن
حوه ، وانه ليريد ان يعانق هذا الجمال بكل جوارحه ، فترده يد
سوداء ، تخرج له من الظلام ، تنهاه ان يقترب فيبكي ويئن ، ويشعر

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص (١٥) .

كأن الدنيا بكل ما فيها من سعادة وجمال وفتنة قد فُتت من تحت
بصره ، ولم يعد له الا كهف الموت يتمشربين صخورها ، وبالهنس الحياة
حين يضغض الموضع على قلب شاعر وصدرة ، فتسود الدنيا في عينيه ،
ولا يجد ما يفرج عن كربته ، او يكشف عن غمته ، حتى امانيه فانها
تهوى بتساقطة ، تساقط الشهب ، وماذا بقي للشابي من دنياه ؟
انه لم يبق له الا الظلام الموحش والا الرؤى المزعجة والاشباح المخيفه
أشباح الموت القاسي الفاسم الذي لا يرحم . (١)

٢ - فلسفة الموت عند ابي القاسم الشابي :

الدارس لديوان الشابي يجد العديد من القوائد يرحب فيها
الشاعر بالموت ويناجيه ، وكأن رباطاً من الصداقة متين يربط بسين
الاثنين ، ولكن نظرة متألمة تظهر لنا العكس ، لقد كان الموت عند
ابي القاسم الالسد ، يخشاه ويهرب منه .

يا موت ماذا تبتغي مني وقد مزقت صدري
ماذا تعود وقد سودت بالاحزان فسكروى
يا موت قد شاع الفؤاد ، واقفرت فرصات صدري
وقدوت امشي مطرقاً من ضلوع ما اقلت فكروى
يا موت نفسي ملت الدنيا ، فهل لم يأت دورى (٢)

فالموت هو السبب في كل ما يصاني ، وهو يتعجله لانه يحبه ،

(١) شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

بل لانه عذبه فزهده بالحياة . . . الموت عمو الذي اودى بوالسده ،
ثم اتبعه بمحبوته . استمع اليه يقول :

كنا كزوجي طائر ، في دوحه الحب الامين
نقلوا ناسبه المنى بين الخماثل والفسون
مفردين مع البلايل في السهول وفي الحزون
ملا الهوى كأس الحياة لنا ، وشمعها الفتون
حتى اذا كدنا نرشف خمرها ، غصيب الكفون
وأعصاب بالحب الوديع ، فودع العشر الامين
وشدا بلحن الموت في الافق الحزين المستكين
ثم اختلف خلف الغيم ، كأنه الطيف الحزين (١)

الم يكن الموت يضارده عو نفسه ، بعد ان أدهى المرز قلبه ،
فالموت بلا شك سيكون العدو الاول للشابي ، ولكن لم نلجس الشاعر
الموت وتنتنى به ، لم رمز اليه بالصباح ؟ ، الميت اشراقة الصباح
معقبة اظلامه الليل ، عدل الليل بحلكنه عو رمز لحياة الشاعر ، وعمل
الصباح باشراقتة ، هو الموت الذي يبدد سأم الحياة ، كما يبدد
النور الظلمة ؟

استمع اليه يقول :

يا بني أمي	تري اين الصباح
أوراء البحر	أم خلف الوجود
يا بني أمي	تري اين الصباح

(١) أمنا القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٥٤ .

ويظهر رمزه للصبح بالموت نسي قصيدته الى الموت :

الى الموت يا ابن الحياة التعميس	ففي الموت صوت الحياة الرخيم
الى الموت ان عذبتك الدهور	ففي الموت قلب الدهور الرحيم
الى الموت فالموت روح جميل	يرفرف من فوق تلك الثيبم
الى الموت لا تخش اعماقه	ففيها ضياء السماء الوديع
هو الموت طيف خلود جميل	ونصف الحياة الذي لا ينسج
هناك خلف الغشاء البعيد	يعيش المنون القوي الصبح
يضم القلوب الى صدره	ليأسوما مضها من جروح
ويحسث فيها ربيع الحياة	ويههجهما بالصبح الفسوح (١)

فالموت عند الشاعر هو الصبح الذي يبدد ظلمة الحياة ،
ويزيل ما اعتسورها من غم ومصائب .

الى الموت ان عذبتك الدهور ففي الموت قلب الدهور الرخيم
فهو ان ان رحب بالموت رحب به لان الدهر عنده ، ووجد في
الموت القلب الرحيم .

ولما كان الموت شديد الصلة بالشاعر ، صلة عداة وبغضساء ،
صلة وحشر بنهضة ، كان لا بد ان يحاول الشاعر فهم كنهه ، على يجد
في تلك المعرفة ما يميزه . فأثار الشاعر اسئلة ، ووضع علامات
استفهام اسام قضايا تعرض لها العديد من فلاسفة الزمان وحكمائه ،
ولكن عدل استطاع الشابي ان يحصل على اجابة يعزى بها نفسه ،

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٧٦ .

ويحل لنا اللغز ؟

الرواية

- نحن نمشي ، وحولنا هاته الاكوان تمشي ، لكن لاية غاية ؟
نحن نشدو مع المصافير للشمس وهذا الريح ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للموت ولكن ماذا ختام الروايه ؟
عكدا قلت للرياح فقالت "سل ضمير الوجود كيف البداية" ؟
وتغشى الضباب نفسي فصاحت في ملال : الى اين أشي ؟
قلت "سيرى مع الحياة" فقالت ما جنينا ، ترى من الميرامس ؟
فتهاقت كالهشيم على الارض وناديت اين يا قلب رفشسي ؟
هاته علني اخذ ضريحى في سكون الدجى وادفن نفسي (١)

تساءل ابو القاسم عن نهاية رواية الحياة ، ولكنه قول بسؤال
عن كيفية البداية ، ولكن الشابي قد اعصابه ، ولم يجد جوابا
فأسرع ينادى نفسه لتحضير الرقعة والمصول ليخط ضريحا لها .

ولما لم يجد الشابي اجابة لسؤاله ، وبقي اللغز بدون حل ،
عاد ليهاجم القدر هجوما عنيفا ، وأى شيء يفيد الهجوم ، وليس هو
دليل عجز ؟

يا لهل ما تصنع النفس التي سكنت
فانما الموت ضرب من حياثله
عذا هو اللغز عماء وقدم
عذا الوجود ، ومن اعدائها القدر
لا يفلت الخلق ما عاشوا فما النظر
على الخليفة وحش فاطك حذر

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .
٦٥ / ٠٠٠

قد كبل القدر الضاري فرائسه
وخاط أمهم ، كسي لا تشاهده
لا الموت ينقذ عم من هول صولته
حار الساكين وارتساعوا واعجزهم
قد ايقنوا انه لا شيء ينقذ عم
فما استطاعوا لها دفعا ، ولا حذروا
عين ، فتمسلم ما يأتي وما يذر
ولا الحياة ، تساوى الناس والحجر
ان يحذروه ، وهل يجديهم الحذر
فاستسلموا لكون الرعب ، وانتظروا

لقد اقتنع الشاعر ان كنه الحياة وسرّها معقد ، لا يمكن ان تصل
اليه نفسه ، استسلم الشاعر للقدر ، ولكنه استسلم لم يصدر عن سرد
اليقين ، وظمأنينة النفس ، فهو ان يودع الحياة يودعها ببيكاء وعويل
وعواشد ما يكون حرصا عليها .

وقهقه القدر الجبار سخوية
تمشي الى العدم المحتوم باكية
وانت فوق الاسى والموت ميتم
بالكائنات ، تفراحك ابها القدر
طوائف الخلق والاشكال والصور
ترنو الى الكون يبني ثم يندثر (١)

ولعل اكثر قصيدة تظهر فيها فلسفة الحياة والموت عند الشاعر
عني قصيدته - حديث المقبرة - وهي حديث فلسفي ، مداره الحياة
والموت ، والخلود والكمال . قال الشاعر في تقديمه لقصيدته " في
ليلة مظلمة من ليالي الصيف ، خرج الشاعر بنفسه من القرية الصغيرة
النائمة في سفح الجبل ، وفي ذلك السكون الشامل ، والظلام المركم ،
اخذ يمشي بين اشجار الزيتون المزهرة في مسلك منفرد ، ثم اعتلى تلك
الربوة الصغيرة ، حيث كانت مدافن القرية ، وحيث ينام الموتى في
صمت الدهور .

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

وبين القبور الخرساء الجاشة تحت أضواء النجم ، حيث يتحدث
كل شيء بجلال الموت ، وتفاهة الحياة ، جلس الشاعر بأقدام متعبه ،
ونفس شائره ، واجفان قد اذبلتها الاحزان ، فطافت بنفسه الاحلام
والافكار والذكريات ، وتقلب امامه صور الموت وأمواج الحياة وتتاهمت
امامه رسم الايام الكثيرة ، ما نام منها في قلب الازل ، وما لم يزل
ينسو في احشاء الابد الكبير . وجاشت في قلبه عساته العصور
والخواطر عجت في صدره عبيج الامواج الشائرة ، فألقاها الى الليل
في النشيد التالي (١)

اتفنى ابتسامات تلك الجفون ؟ ويخيم توهمج تلك الخدود ؟
وتذوى وهدات تلك الشفاه ؟ وتهوى الى الترب تلك النهود ؟
وينهد ذاك القوام الرشيق ؟ وينحل صدر ، بديع وجيد ؟
وتريد تلك الوجوه الصباح وقتنة ذاك الجمال الفريد (٢)

هذه الابيات تعكس رغبة الشاعر في الحياة وحبه اياها ، فهو
شفق عليها ان تنزل ، ترائق السمتصها الزائله ، فهو يخشى زوال الابتسامة
العذبة ، ويخاف فناء الخدود الجميلة ، ويفزع من ان تذوى الشفاه
الوردية ، والنهود العاجية ، بل هو يفرق من اندثار القوام الجميل .

وخشيته لم تقتصر على فناء المرأة الجميلة فحسب ، فهو يخشى زوال
الصباح المذب الجميل واندثار الشمس الدافئه ، وضوؤها المشرق ، يخشى
اندثار معالم الطبيعة الجميلة التي احبها ، بحارها ، وانهارها ،
رياضها ، بساينها ، ووردعها ، اعشابها .

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٤ ، ١٣٦ .

ويقضي صباح الحياة البديع ؟ وليل الوجود الرهيب العتيد
وشمس توشي رداء القمام ؟ وبدر يضيء ، وغيم يجود
وضوء يصرع موج الخدير ؟ وسحر يطرز تلك البرود
وبحر نسيح ، بصيد القرار يضج ويدوي دوى الوليد (١)

وعو يقرر ان هذا الفناء الشامل الذي ينتظر الكون ، هو شيء
أعظم من ان تحمله النفوس ، ويتساءل لماذا لا يخلد الانسان ولماذا لا
تستمر الحياة .

كبير على النفس هذا العفاء وصعب على القلب هذا الهمود
وماذا على القدر المستمر لو استمرأ الناس ظم الخلود
ولم يخفروا بالخراب المحيط ولم يفجعوا في الحبيب الملود
ولم يسلكوا للخلود المرجى سبيل الردى ، وظلام اللحد
فدام الشيب ، وسحر الغرام وفن الربيع ، ولطف الورود (٢)

ويستمر الشاعر في تساؤلاته ، وتظل الحيرة تسربل قلبه ، ويظل
ضممه في الخلود يسيطر على نفسه ، ويملك حسية ، " وكانت بين القبور
روح فيلسوف قديم مجهول جاءت تنزور جسمها الذي أصبح رملة باليه
في احشاء التراب ، فأشفقت على الشاعر السكين من آلامه الروحية
وحيرته الظائمه ، فأرادت ان تعلمه الحكمة ، وتسكب في قلبه برد
البعين فتخاطبه بهاته الايات (٣)

تبرمت بالعيش خوف الفناء ولو دمت حيا سئمت الخلود
وعشت على الارض مثل الجبال جليلا رهيبا ، فريبا وحيد

(١) و (٢) و (٣) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢٦ ، ١٣٧ .

فلم ترتشف من رضاب الحياة
ولم تدرد ما فتنه الكائنات
وماذا يرجس ريب الخلود
تأمل . . فان نظام الحياة
فما حبب العيش الا الفناء
ولولا شقاء الحياة الاليم
ومن لم يرعه قطوب الدياجير
ولم تصطبغ من رحيق الوجود
وما سحر ذاك الربيع الوليد
من الكون - وهو القيم الابد -
نظام دقيق ، بديع ، فريد
ولا زانه غير خوف اللحد
لما ادرك الناس معني السمود
لم يفتبط بالصباح الجديد (١)

هكذا قالت روح الفيلسوف للشاعر حاولت ان تقنعه ان الخلود
يعني السأم وانه يعني الجمود ، جمود الجبال ، وان خلود النفس قاتل
ظروحها ، فمن استمتعها بالحياة ، فما احب الانسان الحياة وحرص
عليها الا لخوفه من اللحد ، فان تدد هذا الخوف ، واضمان الى
استمرار الحياة ذهبت لذتها ، وان الانسان لا يستشعر معنى السعادة
الا اذا عانى الخوف ، وشعر بالشقاء .

ولكن عمل اقتنع الشاعر بما قالت له روح الفيلسوف ؟ استمر
بحاورها ويجاد لها ، علته يتمل الى قناعه .

انما لم يكن من لثاء العنايا	مناصر ، لمن حل هذا الوجود
فأى غناء لهذي الحياة	وهذا الصراع ، المنيق الشديد
وذاك الجمال الذي لا يمل	وتلك الاغاني ، وذاك النشيد
لماذا نمر بوادي الزمان	سراعا ، ولكننا لا نعود
فنشرب من كل نبع شواها	ومنه الرقيق ، ومنه الزهيد

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٦ ، ١٣٧

ومنه اللذيذ ومنه الكريه
وكل - اذا ما سألنا الحياة -
ومنه المشيد ومنه المبيد
غريب لعمري بهذا الوجود
اثيناه من عالم لا نراء
فرادى ، فما شأن عذى الحنود
وما شأن عذى العداء العنيف
وما شأن هذا الاخاء السود (١)

يتساءل الشاعر ، ويقول اذا لم يكن من الصوت بد ، فلماذا
التكالب على هذه الدنيا ، لماذا الجرى وراء مسراتها ، لماذا الاقتتال
بين ابنائها ، بل لماذا تلك الصداقات التي تربط بين الناس ،
وكأنني بالشاعر وقد تجرع الحقيقة يود منا ان نعيش الحياة بسلبية ، لا
نهتم بتحقيق الاسور ونغيرها ، لا نهتم بمتع الحياة ومسراتها .

ولكن روح الفيلسوف تقول له :

خلقنا لنبلغ شأواً الكمال
ونصبح اهلاً لمجد الخلود
ونكسب من عشرات الطريق
قوى لا تهدأ بدأب الصعود
ومجدنا يكون لنا في الخلود
اكاليل من رائعات السورود (٢)

كانت روح الفيلسوف اكثر ايجابية فأبلفته اننا هنا نحيا لنحاول
بلوغ الكمال نستحق الخلود ، خلود افعالنا لا خلود اجسامنا .

ولكن مع ذلك مثل اقتصع الشاعر استمع اليه يقول "هو بالقبرة
يروب من الأرواح ، في طريقها الى العالم المجهول ، فطارت معها
روح الفيلسوف وخلفت عالم الشك والكتابة لابنائها البائسين وظل الشاعر
يردد بينه وبين نفسه :

خلقنا لنبلغ شأواً الكمال
ونصبح اهلاً لمجد الخلود (٣)

(١) و (٢) و (٣) ابوالقاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٦ ، ١٤٠ .

ولكننا بمد كل ما نخدم لا زلنا أمام سؤال ملح ، يتطلب منا جوابا ،
عمل كان ابو القاسم محبا للحياة ميغضا للموت ؟ ام انه كان كارهسا
للحياة مرحبا بالموت ؟ وقد وردت في ديوانه العديد من القصائد
يغض فيها الموت ، والعديد من القصائد يدعو فيها الى الموت .

الى الموت لا تخشى اعماقه ففيها ضياء السماء الوديع
هو الموت طيف خلود جميل ونصف الحياة الذي لا ينسج

اختلف النقاد ممن تناولوا شعر الشابي بالدراسة والتحليل ، في
فلسفة الموت والحياة عنده فيرى بعضهم ان الشابي كان محبا للموت ،
لان مظاهر عشقه له تنشر عبر ديوانه (١)

ويرى آخر ان الشاعر كان قبلا على الموت ، اقبالا ايجابيا واعيا
راجيا ان يجد في صدره الراحة من عذاب العالم المظلم (٢)

وهناك من رأى ان الشابي لم يعشق الموت حتى ولو شقيت الحياة
ولم يرمنه الا استعلاء عندما ايقن انه سيشتزم سريعا ، حاول
ان يصرف نفسه عن مرارة الكأس ، او يهبون هذه المرارة على الاقل (٣)

ويرى الباحث ان الشابي كان يحب الحياة ويكره الموت ، ويشقى
اذا احس يقرب النهاية . حين اعيب الشابي بقلبه ، وادرك ان الموت

(١) مجلة الاداب ، العدد السابع ، السنة الثانية ، يوليو ١٩٥٤ ، ص ٥ .

(٢) خليفه محمد التليسي ، الشابي وجبران ، مقال ورد في كتاب دراسات
عن الشابي اعداد ابو القاسم محمد كرو ص ١٠٢ .

(٣) نعمات احمد فؤاد ، شعب وشاعر ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

مترصص به لا محاله ، لا ينفعه طب الاطباء ، ولا التعاويذ والرقى ،
عندها رجب بالموت كسرا لا بد منه ، وكأني به يقول :

اذا لم يكن من الموت همد فمن الماران تصوت جنانا
ساعت حاله باصابتة بقلبه ، ويموت من احب ، وبأعدائه المترصصين
به ، شمر بتفاعة العيش وتمنى الموت ، ولسان حاله يقول :
ليس من مات فاستراح يميت انما الميت يميت الاحياء
انما الميت من يعيش كميما كاسفا باله قليل الرجاء
احب الشابي الحياة ليس لنفسه فحسب ، ولكن لشعبه فطالما هتف
بهم مطالبهم بالحياة :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ويظل الموت عند الشابي حقيقة مره مبغضه :
حقيقة مره ، ياليل مبغضة كالموت لكن اليها الورد والصدر (١)
ويكره الشاعر الموت ، ويقدر قيمة الحياة ، وبراعا السيدة
والناس السوديون ، يدرك ذلك حين اغتال الردى والده فقال :
ما كنت احسب بعد موتك يا ابي ومشاعري عمياء بالاحزان
اني سأظلم للحياة واحتسي من نهرها المشوعج النشوان
واذا التشائم بالحياة ورفضها ضرب من البهتان والبهذيان
ان ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الايمان

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٨٢ . ٧٣ / ٠٠٠

وأحصت نعمات احمد فؤاد في بحثها عن الشاعر ، انه هتف بالحياة
والامل في ديوانه ثلاثئة وخمس عشرة مرة ، ظفرت لفظة الحياة وحدها
بمئة وستة عشر موضعا ، من مثل الاماني ، السرور ، السلام ، ابتسام ،
الجمال ، الطروب ، بهجة ، ، نشيد الرجاء ، الافراح ، خمير الحياة ،
الحب ، الشوق ، الخ ، وتتساءل الكاتبة ألمست هذه الالفاظ ، لبنات
الحياة البناء الآمله الراقبه ؟ (١)

وأجيب نعم بل هي كذلك ، ولو لم يكن الشاعر حريصا على
ذلك ، لما وقف يقارع الاستعمار بقصائده ويحارب الجهل والتخلف .

وتستمر الكاتبة فتري ان الحياة لم تغز بثلاثئة وخمسة عشر لفظا
فحسب ، بل ان في رصيدها ثمة وواحد وستون لفظا آخر ، هي الفاظ
القوة والاستشراف في الديوان ، مثل : مجد ، يثار ، الحق ،
الحسام ، القوة ، تشتعل ، اليقظة ، أجيح ، يثبر ، الجسور ، أجنحه ،
مندفع ، هب ، اباء ، اضرم ، العز ، وتتساءل الكاتبة ألمست القوة
والاستشراف من معاني الحياة ، ومن مقوماتها الاصلية ؟ (٢)

وبعد كل ذلك استطيع القول انه لم تكن للشابهي فلسفة
بمعناها العميق - في الصوت ، وان كل ما اثاره هي استفسارات
حائره تركها غائمه تنتظر جوابا ، ولا عجب في ذلك فأهو القاسم
شاعر مرعف الحس والمشاعر ، ليس فيلسوفا .

(١) و (٢) نعمات احمد فؤاد ، شبيب وشاعر ، ص ٧٠ ، ٧١ .

٣ - موقف الشابي من شعبه :

فلسفة القوة :

اذا كنا قد توصلنا الى انه لم تكن للشابي فلسفة واضحة في الموت انما هي تأملات وتساؤلات لم يستطع لها جوابا .

تقد كان للشابي من ناحية اخرى فلسفة واضحة ، لا تقبل الشك ، هي فلسفة القوة ، وان البقاء للافضل ، لقد كرس الشابي العديد من القصائد لهذا الفرض ودعا اليه بصراحة ، لقد توصل الشاعر الى ان الحياة صراع بين القوي والضعيف ، والضعيف هو المنهزم دائما .

ان الحياة صراع فهما الضعيف يداس

وقدر ان الذل ، هو سبة عار ، لا يرتضيه الكرم

والذل سبة عار لا يرتضيه الكرام

قام اليأس ودعا الى مقاومته واعتبره موتا ، بل موتا لا يحقق الراحة الابدية ، انما موت يثير الشقاء . ودعا الى الاخذ بالجد والاجتهاد والمثابرة في العمل والدأب للوصول الى القام الذي يحقق للامه عزتها ومكانتها .

وللشعب حياة	حينما ، وحينما فناء
واليأس موت ولكن	موت يثير شقاء
والجد للشعب روح	توحي اليه الهناء
فان تولت تصدت	حياته للهلاء (١)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٥ ، ١٦ .

وانطلاقاً من فلسفة القوة ، التي بها يتحقق مجد الامم وبنيتها
دعا افراد شعبه ، الى التحاف العزيمه ، والاخذ بأسبابها ، فهي التي
يخر امامها كل جبار ، ويخشاها كل معتد ، وأي شيء أضمر على العزيمه
والغضاء من البأس والقنوط ؟ فالاقبال على الحياة وحبها يقود الى
المجد ، والقنوط يقود الى اللحد .

وفي العزيمة قوات مسخرة يخر دون مداها الشامخ الجبل
والناس شخصان ذا يسعى به قدم من القنوط ، وذا يسعى به الامل
غدا الى الموت والاجداث ساخرة وذا الى المجد ، والدنيا له خبول (١)

والشابي الذي احب الحياة ، وكره الموت ، كره كل مسهيات
الفناء ، كره الحروب التي تودي بالانسانية وتذهب المحبة ، وتحلل
اليفضاء . دعا الى السلام ، واعتبره الطريق الافضل للانسانية ، ولكنه
سلام بعيد عن الاستسلام ، فاذا ما فرضت الحرب على الشعوب ،
فلتنهض ولتقاتل قتال الابطال .

فما الحرب سوى وحشية نهضت في انفس الناس ، فاقادت لها الدول
وأيقظت في قلوب الناس عاصفة غام الوجود لها ، واريدت السبل
فالدغر منتعل بالنار ملتحف بالهول والويل والايام تشتعل
والارض دامية ، بالاثم ظامية ومارد الشرفي ارجائها شمل (٢)

وأى شيء أسمى من الحرية ، وأي مشكلة عانتها الامم العربية في
تاريخها المصاير ، اعظم من مشكلة العبودية ، كبل المستعمرون الامم

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ .

وأبناءها ، سلبوا حريتها ، فدعاهم الى الثورة الى انتزاع الحرية من
انياب الذئاب المفترسة .

آمن الشابي بمدأ انساني وعنه الامم في مختلف صورها ، ودعت
اليه الاديان على تعددها ، الحرية هي منحة الله للفرد ، التي يجب
الحرص عليها والقتال دونها .

وحررا كسور الضحى في سماء	خلقت صليقا كطيف النسيم
وتشدو بما شاء وحي الاله	تضرد كالظير اين اندفعت
وتنعم بالنور أنى تسراء	وتسرح بين ورود الصباح
والقتك في الكون هذى الحياة	كدا صاغك الله يا ابن الوجود
وتحني لمن كبلوك الحياة	فمالك ترضى بذل القبود
فمن نام لم تظفره الحياة؟ (١)	الا انهض وسر في سبيل الحياة

وتظهر فلسفة القوة عنده اكثر ما تظهر في قصيدته - فلسفة
الثعبان القدس - ويبدو انه رمز للمستعمر بالثعبان ، والشحورور للشعب
الضعيف المالم ٠٠٠ لقد كان الشحورور يغني طريا منشدا اغانيه
للشمس المشرقة ، وللأعشاب النديه ، تعيش في قلبه السمادة ، ويغمر
نفسه حب الحياة ، لا يضر الحقد ، ولا يظهر البغض .

الشاعر الشحورور يرقص منشدا	للشمس ، فوق الورد والأعشاب
شعر السمادة والسلام ونفسه	سكرى بسحر العالم الخلاب

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨٨ . ٧٧/٠٠٠

ولكن الثعبان يضغطن عليه ، ويحسد عليه عيشه ، أراد ان يصرعه
يصرع السعادة ، ينزع السلام ، يقتل الطمانينة ، يبديد الحب ، ليحل
محلّه الدمار ، ينزع السلام ، ليقرر الحرب .

ورآه ثعبان الجبال ، فغمّه ما فيه من مروح ، وفيض شباب
وانقض مضطئنا عليه كأنه سوط القضاء ، ولعنة الارباب
يفت الشقي فصاح في عول القضا مثلنا للصائل المنتساب

وقف الشحرور ، امام العدو المتربر ، يصرخ لا يجد سلاحا يشهره
حاول ان يبحث عن الاسباب التي جعلت المجرم يتغضر عليه ، واخيرا
عشر عليها .

وتدفق السكين يصح ثائرا ماذا جنيت انا فحق عقابي
لا شيء الا انني متهمزل بالكائنات منرد في غابي
التي من الدنيا حنانا ظاهرا وابشها نجوى المحب الصابي
ابعد هذا في الوجود جريمة اين العدالة يا رفاق شبابي ؟

واخيرا اعتدى الشحرور الى الاجابه ، طرح سؤالاً وأجاب عنه
ان سعادة الضعيف تعتبر جرماً عند القوي ، يجب ان تلب ، وان العدل
في هذا الوجود لا يمكن ان يتحقق الا اذا تعادلت القوي وتساوت ، فلا
عدل ولا حق غير مدعم بالقوة .

لا (أين ؟) فالشرع القدس ها هنا رأى القوي وفكرة الفسلاب
وسعادة الضعفاء جرم ، ماله عند القوي سوى اشد عقاب
ولتشهد الدنيا التي فنيتهما حلم الشباب ، وروعة الاعجاب
ان السلام حقيقة مكذوبة والعدل فلسفة اللهب الخابي

لا عدل ، الا ان تعادلت القوى وتصادم الارهاب بالارهاب (١)

عذره هي فلسفة الشاعر التي آمن بها ، ودعا شعبه الي
اعتناقها ، واتخاذها سنة لحياته .

ولكن ما هي السبل التي سلكها الشاعر ليصل بهذه الحقيقة
الى قلب شعبه ؟ لقد ايقن الشابي ان العدو والاول الذي يجب ان
تصوب اليه اولى سهامنا هو الجهل والتخلف ، وايقن ايضا ان الامه لن
تتحرر الا اذا اخذت بأسباب القوة وعاشت يومها مستفيدة من عناصر
القوة في تاريخها ، نايذة كل فث ، مستغوية عن كل سفاسف ، آخذة
بموكب الحضارة والملم الذي اشرق على الدنيا في عصرها الحديث .

لذا كان اول عدو هاجمه الشابي ، قبل مهاجمته الاستعمار
هو التخلف والجمود ، والقيوع في مواطن النذل ، والاستكانة للاحداث ،
لذا فقد نعس على امته وابنائها قلة المفاسرين فهمها ، قلة الطامحين
الى مراقي المجد والسؤدد .

أين يا شعب قلبك الخائف الحساس ؟ أين الطموح والاحلام ؟
أين هم الحياة يدوي حو اليك ، فأين المغامر القلدام ؟

اخذ على شعبه لصياح العزيمة ، واخذ عليهم الضمف والخسور ،
وتبلك المشاعر .

أين عزم الحياة لا شيء * الا الموت والصمت والظلم
عمر ميت ، وقلب خواء * ولم لا تشيره الآلام

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٩٢ .

أى عيش هذا ، وأى حياة رب عيش اخف منه الحمام (١)

الشاعر في هذه المرحلة ، مشفق على شعبه ، متعاطف معه ،
بين له مكايين الداء ، علّه يحوّل أسبابها ، ان من اهم المشكلات
التي تواجه هذا الشعب ، وتحول دونه والحرية ، هي عدم سماعه
لدعاة الاصلاح من بيته ، بل والنهوض لمقارعتهم ومقاتلتهم .

استمع اليه في قصيدته " تونس الجميلة " :

لست ابكي لعسف ليل طويل	أولربح غدا العفاء مراحه
انما عبرتي لخطب هيسل	قد عرانا ، ولم نجد من ازاحه
كلما قام في البلاد خطيب	موقظ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الالهى بالعسف	اماتوا صداحه ونواحه
أنا يا تونس الجميلة في لجج	الهوى قد سمحت اى سباحه
شرعتي حبك العميق وانى	قد تدوقت مره وقراحه

ثم ينتقل الشابي بشعبه الى مرحلة ثانية ، هي اشارته ضد
الظالم ليشأر لدماء ابنائه المراقه ، ليحرر ارادته المكبلة ، فاذا لم
ينهض لذلك ، فهو بالموت اجدر ، ، وبالفناء احق .

كل قلب حمل الخسف وما	مسل من ذل الحياة الارذل
كل شعب قد طغت فيه الدما	دون ان يثار للحق الجلى
خلة للموت بطويه فما	حظه غير الفناء الانكل (٢)

ويرى ان الشعب لا ينهض الا اذا نهض فيه المنم ، وهذا السن
يكون الا اذا احب الحياة ، فحبها يتخطى كل الصعاب ، والاموات هم

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢٥

الذين بألفون القيود ، أما الأحياء ، فانهم قسارون ومستطيعون الفكاه
منها بالعمل الجاد .

لا ينهض الشعب الا حين يدفعه عزم الحياة ، اذا ما استيقظت فيه
والحسب يخترق الغبراء مندفعاً الى السماء ، اذا هبت تلايه
والقيود بألفه الاموات ، ما لبثوا اما الحياة فيبليها وتبليسه (١)
وتبلغ ثورة ابي القاسم أوجها ، ويتضح رأيه في الحياة وحبها ،
ويرسم لنا طريق بلوغها ، في قصيدته المشهورة " ارادة الحياة " ولعل
اسم القصيدة ، يحمل اعماق فلسفة الشاعر " انها ارادة الحياة " فمن
ارادها ارادته ، ومن احبها عمل من اجلها ، وداس الصعوبات التي تسد
الطريق ، واخضع كل شيء حتى القدر ، وأزال ظلمة الليل الحالك ، لتحل
محلها اشراق الصبح ، وكسر الاغلال .

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

اما اولئك النفر الذي لم يعشقوا الحياة ، فان الحياة ستوجد
ابوابها دونهم ، وسوف يكون الفناء رائد هم .

ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها واندرثر
فويل لمن لم تشقه الحياة من صفة العدم المنتصر

اما الانهزاميون السلبيون ، فهم المندهحرون ، العائشون بـيين
الشعاب ، وفي ظلمات الكهوف ، يشلمهم العار ، ويدشرهم الذل بدثاره .

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١١٨ . ٠٠٠ / ٨١

ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر
ثم يعود مرة اخرى ليشير الى منطلقه ، ويؤكد فلسفة " ارادة
الحياة " .

وقالت لي الارض - لما سألت : " أيا أم هل تكرعين البشر "
" أبارك في الناس اهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر "
" وألعن من لا يماشي الزمان ، ويقنع بالعيش عيش الحجر "
" هو الكون حي يحب الحياة ، ويحتقر الميت مهما كبر "
" فلا الافق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزعر "
" ولولا امومة قلبي الرؤوم ، لما ضمت الميت تلك الحفر "
" فويل لمن لم تشقه الحياة ، من لمنة المدم المنتصر " (١)

ثم ينتقل ابو القاسم بشعبه الى المرحلة الثالثة ، مرحلة تهديد
الظالمين المتصلفين بشورة الشعب ، وكأنني به يريد ان ينزل الخوف
من النفوس ، بعد ان ترسح لديها انها ضعيفة امام عدوهمك وسائل
الفتك والفتن ، وهي ضعيفة لا حول لها بلقائه ، وكأنني به اراد من
هؤلاء المستعمرين ، الذين غررتهم القوه وأعماهم الطمع ، ان يعودوا الى
رشدهم ، ويتنازلوا عن سلفهم ، ليقول ان الشعوب مهما ضعفت الا
انها قادرة على الفتك بهم ، وتصفيتهم .

استمع اليه يخاطب المستعمرين :
يا أيها السادرني فيّسه
يا واقفا فوق حطاسام الجبسة

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

مهلا ففي أنات من دستهم
صوت رهيب سوف يدوي صداه
بأهبها الجبار لا تنزدرى
فالحق جبار طويل الأناء
بغنى وفي أجفانه يقظة
ترنو إلى الفجر الذي لا تراه (١)

فالسلاح الذي يتسلح به الشاعر، والذي يهدد به الظالمين،
هو سلاح الحق، وأى سلاح أقوى منه، إذا تسربل به شعب منحه
القوة، أو معنى في سبيل الحصول عليها .

وفي قصيدته " زئير العاصفة " يقول :
فيما أيها الظلم المصغر خدّه رويداك ان الدهر يبني ويهدم
سيثأر للفرز المحطم تاجه رجال اذا جاش الردى فهم هم
رجال يرون النذل عارا وسبة ولا يرهبون الموت والموت مقدم (٢)

وفي قصيدته " إلى الطاغية " يقول :
يقولون صوت المستذلين خافت
وفي صيحة الشعب المسخر زعزع
ولعملة الحق الغضوب لها عدى
إذا التفحول الحق قم فانه
وسمع طغاة الأرض (اطوش) اضخم
تخر لها شم العروش وتهدم
ودمدمة الحرب الضروس لها قم
يصم أحداث الزمان ويبهم

(١) أبو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٥٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

لك الويل يا صرح المظالم من غد
اغرك أن الشعب منفض على قذى
وإن الفناء الرحب وسنان مظلم
ولكن سيأتي بعد لاي نشورها
إذا نهض المستضعفون ، وضموا
وينشق اليم الذي يترنم
هو الحق بغنى ثم ينهض ساخطا
فيهدم ما شاد الظالم ويحطم (١)

وبعد ، لقد أوضح الشاعر لشعبه فلسفة الحياة ، وانها قائمة
على القوة ، وان الحياة فيها للاقوى ، وان دروب الحياة ، مفتوحة لمن
ارادها ، ثم انتقل ليربهم مواطن الضعف ، ومكامن الداء ، ثم
دعاهم للثورة ، الثورة على التخلف ، الثورة على الجهل ، على المرض ،
قبل الثورة على المستعمرين .

ثم حاول الشابي ان يبعث العزم في نفوس الامة ، وانها قوية
على ضعفها ، اذا آمنت بحقها ، وأحبت الحياة ، وصب جام غضبه على
المستعمرين ، انذرهم وهددهم ، عساه يصيهم في معنوياتهم .

ولكن هل استجاب الشعب ؟ هل وعي الحقيقة ؟ هل ادركها ؟
هل تشلها سلوكها ؟

هنا تبدأ المرحلة الرابعة من علاقة الشاعر بشعبه مرحلة
البأس والنقمة ، لم يصل الشعب بعد الى النضج ، ولم يستطع ان
يلبي داعي ابي القاسم ، فتأخر في ثورته ، واستعجله الشابي ، ولكنه
لم يأبه ، وأراد ابو القاسم ثورة عارمة تدمر كل اسباب الضعف ، ولكن
الشعب الذي لم يتهيأ لذلك توانس ، فغضب منه الشاعر وسخط عليه
واتهمه بالجنون .

انني ارى ، فأرى جموعا جمعة لكنها تحيا بلا ألباب

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٣

وعاب فيهم اقتتالهم واختلافهم :

وقضوا على روح الاخوة بينهم جهلا وعاشوا عيشة الاغراب
لصحب يحركها المطامع واللهي وصغائر الاحقاد والآراب

وعاب ايضا ادبارهم عن كل دعاة الاصلاح :

الشاعر الموعوب يهرق فنه هدرا على الاتدام والاعتاب
ويعيش في كيون عقيم ميت قد شيدته غباوة الاحقاب (١)

وحاول الشابي ان يظهر شعبه على مواطن القوة فيه ، وانه
تأدر على السيطرة ، على الحياة ، وان يتجوأ احسن مكان فيها ، لو
حرر ارادته ، واسلم زمامه لقيادة سلبية ، تأخذ بيده ، وتقوده الى
سالك القوة ، وتححرر افكاره ، من اسار تقاليد عفى عليها الزمن .

أبها الشعب انت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مخس
انت في الكون قوة لم تسها فكرة عبقرية ذات أساس
انت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من اس اس

ان دعوات الشابي ، لم تجد اذنا صاغية فحسب ، بل وجدت
نكرانا وجحودا ، فتعرض الشابي لهجوم عنيف ، شنه عليه ، اولئك
النفر ، الذي يحقق قعر الشعب غناهم ، وتحاسنته سمحاتهم ، اولئك
الناس الذين ساروا في ركب المستعمر ، يساعدونه في قهر الشعب ،
وامتزاز ثرواته .

وقم الشابي على رجال الدين ، لانهم لم يستغلوا سلطانهم
ووعيمهم لتبهيئة الناس للشورة على الظالمين ، وكان بإمكانهم ان يفصلوا

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٨٤ .

الكثير ، ففي تعاليم الاسلام دعوة للقوة ، ودعوة لقتال اعداء الامه ،
وفي تاريخ الاسلامي ما يصلح لان يكون نمم القدوة لهؤلاء المظلومين .
لم يفصل هؤلاء شيئا من هذا .

سليء الدهر بالخداع فكتم قد ضلل الناس من ايام وقس (١)

حين ادبر الناس عن ابي القاسم ، وحين رموه بالسروق والخروج
عن مألف امرهم ، حزن وشمر بالثريه بين قم لا يفهمون دعواه .

يا صميم الحياة كم انا في الدنيا غريب اشقى بغربة نفسي
بين قم لا يفهمون انا شيد فؤادى ولا معاني بؤسي
في وجود مكبل بقيسود تائه في ظلام شك ونحس

شار اهو القاسم على شعبه ، وكان يجب ان يكون رحبما وديعا
مدركا سنة التطور ، وان الشعب حتى تتسنى له الثورة ، لا بد وان
ينضج وبقي ما حوله ، ولكنها ثورة نبعت من رغب حسه ، ومن حرصه
الشديد على صلحة شعبه ، شار الشاعر ثورة رومنيه " فلم يكسن
الرومانتيكي عادة بالمرح ولا بالمتفائل ، وانما كان فريسة الم سرير بسبب
الجفوة بينه وبين مجتمع لا يقدر ما فيه من نبيل الاحساس بونتيجة
انهيار آماله الواسعه ، وتعذر ظفوه بالمشال المنشود ، لذا كان الحزن
طابع الرومنسيين وهو حزن يدل على عزلتهم الروحيه ونفورهم من
ادواء المجتمع" (٢)

(١) اهو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٦ .

(٢) د . محمد فنيهي ، غلال ، الرومانتيكيه ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ٣٤

ثار الشابي على شعبه ، واتخذت ثورته دواعي عده ، فهو
يتهم الشعب بالكفر بالحياة ، وعبادة الماضي ، والتخلي عن الحاضر ،
ووعفه بأنه كاهن الظلام .

انت يا كاهن الظلام حياة تعبد الموت انت روح شقي
كافر بالحياة والنور لا يصفى الي الكون قلبه الحجري
انت دنيا يظلمها افق الماضي وليل الكآبة الابدى
والشقي الشقي في الارض شب يومه ميت وماغيه حي

يأس الشابي وتراجع ، وانقلب حبه لشعبه نقمة على عذا الشعب
انه يشور حتى ليرتمى ان يحطم الرؤوس في هذا المجتمع ، وازالته من
عالم الوجود ، لانه لا يصلح للحياة ، وهكذا تكون رسالة الشابي قد
أنهت بسلبية بغضه وبأس قاتل ، ولمرض ابي القاسم ، وتفسوز
اعصابه السبب الاكبر في ذلك ، بل لصل نقمته على شعبه كانت
نابعة من حبه العميق له ، وما اشبه غضب الشابي على شعبه ،
بغضب محب على حبيبته ، فان غضبه نابع من عميق حبه ، وهو ان
غضب ، فهو غضب مؤقت لا يحمل في طياته الحقد ، وان اتهم بالصف
والاقتذاع .

ايها الشعب ليتني كنت حظاها فاعوى على الجذوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول اذا سالت تهد القبور رمنا برمسي
ليتني كنت كالشقاء افشي كل ما انيل الخريف بقترسي

ثم انسحب الشابي من الحياة ، وهجر شعبه ليميش في الغاب ،
وكأنه وكمادة الرومانسيين يجد في الغاب الراحة من شرور المجتمع

الذي صم آذانه عن سماعه .

في صباح الحياة ضمخت الكواهي
ثم قدمتها اليك فأعزقت
فتألمت ثم أسكت آلامي
ثم نضدت من ازا غير قلبي
ثم قدمتها اليك فمزقت
ثم البستني من الحزن ثوباً
وأشرقتها بخمرة نفسي
رحميتي ودست يا شعب كأسني
وكفكفت من شموعي وحسي
باقية لم يمسها أي انس
ورودي ، ودستها أي دوس
وبشوك الصخور توجهت رأسي (١)

هذه هي الاسباب التي جعلت ابو القاسم يعتزل شعبه الى الغاب ، اوضحها له ، وكأنه يشير الى المبرر ، أو يلتزم العذر ،
ها انا ذاهب الى الغاب علي في صميم الغابات ادفن نفسي

لقد فر من الناس بعد ان تحقق من فشل الرسالة التي نادى بها ، ومن اعراضهم عنها ، ، وبعد هل كان للشابي رسالة في الحياة ؟ بعد ما علمنا ما كان بينه وبين شعبه . وهل انتقصت نقمة الشابي على شعبه في آخر عهده ، شيئاً من هذه الرسالة ان وجدت ؟؟

نعم كان للشابي رسالة واضحة لا تقبل الشك ، وتعرض الظمن ، رسالته هي مقارعة الاستعمار ، فالشابي يؤمن بالحياة ، ومؤمن بالشعب ورسالته كانت رسالة كل شعب حر ، رسالة كل متحرر . كانت ثورته على المستعمر تكتمع معها التقاليد المتحجرة ، كانت رسالة الشابي ،

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٠٢ .

رسالة التجديد مع الاحتفاظ بالاصالة القومية ، والاخذ من القديم كل نافع ، كان يريد ان يسير مع الانسانية حيث النور والحقيقة .

والباحث لا يرى ما رآه الدكتور عمر فروخ في ان الشابي كانت تعوزه الرسالة حين يقول " والشابي شاعر ناقم يزعم انه يريد ان يؤدي رسالة ولكنه في الحقيقة يحمل معسولا ليهدم به كل شيء في الحياة والناس والبلاد والوطن والامة . . . وان اداء الرسالة يقتضي اتجاها واضحا وثباتا على مبدأ (١) .

ولست ادري كيف اتخذ الاستاذ فروخ هذا الحكم ، اين هو معول الهدم ؟ هل عوتغنيه بالحياة ودعوته الى الاخذ باساليب القوي ؟ هل هو صموده امام كل التحديات النفسية والمادية ؟ اذا كان الدكتور فروخ قد اخذ على الشاعر سخطه على شعبه في اوخرايامه ، فاعتقد انه سخط ، نعم من حب الشاعر شعبه ، سخط نعم من مقاومة بعض فئات الشعب لهذا الشاعر ، ولا يعني هذا انني اتعاطف مع الشاعر ، واقف معه ، وكنت اود ان لا يقسو الشاعر على شعبه ، وان يأخذه باللين ، وان يدرك ان الثورة الشعبية ، لا تتحقق في يوم وليلة بل لا بد من نضج الشعب ووعيه ، وهي مسؤولية المثقفة الواعية في الامة .

٤ - موقفه من الدين :

يرى الدكتور عمر فروخ ان الشابي قد خرج في شعره عن الدين وتماليكه ، فهو ينحرف في تشابيهه واستعاراته - احبانا - منحى لا يقره التوحيد ، او هو زندقته في رأى النقاد القدماء (٢) فهو يتكلم

(١) د . عمر فروخ ، شاعران معاصران ، ص ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

عن المرأة فيقول :

انت قدسي ومعبدى وصباحي
يا ابنة النور انني انا وحدي
ورببعتي ونشوتي وخلودي
من رأى فيك روعة السجود
ل نفس تصبو لعيش رفيد
فلاله العظيم لا يرحم العبد
اذا كان في جلال السجود (١)

وقال الشابي في احدى وطنياته :

لست ابكي لعسف ليل طويل او لربح فدا العفاء مراحمه
انما عبرتي لخطب هينل قد عرانا ولم نجد من ازاحه
كلما قام في البلاد خطيب موقظ شعبه اراد صلاحه
اخمد واصوته الالهى بالعسف اساتوا صداحه ونواحه (٢)

وقوله :

مليء الدهر بالخداع فكم قد ضلل الناس من امام وقس

وقد يكون الدكتور فرج اخذ على الشاعر قوله في البيت الاول
" انت قدسي ، ومعبدى " ومثل هذا الكلام مأثور لدى الشعراء ، وليس
القصود به العبادة الدينية ، وقد يكون القصود الولاء والحب الدائم
وعدم قدرته الخروج عن طوع من احب . بل قد يجد الباحث في
البيت الثاني ، روعة الايمان ، لانه رأى في جمال حبيبته قدرة الله
سبحانه وتعالى على الخلق والابداع .

اما قوله :

فلاله العظيم لا يرحم العبد اذا كان في جلال السجود
يرى الشاعر ان الله في رحمته لعباده عو القدورة التي يجب ان

يقتدى بها .

(١) ابوالقاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣ .

امافي القصيدة الثانية ، قد يكون الناقد ، اخذ على الشاعر /
قوله صوته الالهي ، واعتقد ان هذه الصفة لا تضير ابا القاسم لانه
يرى ان موت هذا المصلح الداعي الى الخير والصلاح ، كأنه صوت
من السماء ، ومثل هذه الاوصاف مألوفة في الادب العربي وغيره .

امافي قصيدته الثالثة حين انحى الشاعر باللحم على الامام والقس

مليء الدهر بالخداع فكم قد ضلل الناس من امام وقس

لا يعني هذا انه يلوم وينقد في شخصيتهما الدينين الاسلامي
والمسيحي ، بل قد يكون ذلك حرصا على كلا الدينين ، ودعوة لرجال
الدين فيهما ، الى الاخذ بحذافير الدين واصوله وجوهره ، كي
يسمو بالناس ...

كما شار رجال الدين على الشابي عندما نشر قصيدته المشهورة .

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

شار عليه رجال الدين ، وأشاروا الصحف والجمعيات ، فكيف

يقول الشاعر " لا بد ان يستجيب القدر " كيف يستجيب القدر لقوة

الشعب ، بينما القدر لا يستجيب الا لقوة الله ؟ لقد اعتبر رجال الدين
" الشابي " كافرا ملحدا ، وهاجموه هجوما عنيفا وحاربوه على نطاق
واسع (١) .

(١) رجاء النقاش ، ابو القاسم شاعر الحب والثورة ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ،

الطبعة الاولى ، ١٩٧١ ، ص ٦٥ .

والباحث لا يرى في قول الشاعر " لا بد أن يستجيب القدر " خروجاً على الدين ، بل أرى أنها تتفق مع تعاليمه الداعية إلى القوة ، وإن الله وعد عباده في كثير من آياته بالنصر إذا هم عملوا . . .

كما شار عليه هؤلاء لأنه قال في إحدى قصائده مخاطباً حبيته :

انت انشودة الاناشيد غناك اله الغناء رب القصيد

قالوا عنه انه " وشني " فهو يؤمن " بماله للغناء " ، ومعنى هذا انه يؤمن بماله " للحب " واله " للمطر " وغير ذلك مما لم تعرفه الا المصور الوثنية سواء عند العرب او عند الاغريق ، ومعنى هذه التزعة الوثنية ان الشاعر مشرك لا يؤمن بالله واحد ، وهو بذلك ضد " الوحدةانية الاسلامية " (١)

والباحث لا يرى هذا الرأي ، فان الله عز وجل ، هو اله ، لكل ما في الوجود ، هو اله الحب ، واله الخير ، اله الغناء ، اله الصرة ، ولكن الباحث يرى ان ابا القاسم كانت تتقابه شورات عاطفية ، لكثرة ما انتابته الدواهي والمتبه الخطوب ، من داء يسكن قلبه ، وموت يتناول كل عزيز ، فكان يجأر لله بالشكوى ، ولكنها شكوى تحكمت فيها العاطفة ، وسيطرت عليها الاعصاب التي ادماغا الالم ، شكوى لم تتسم بالصبر الذي حث عليه الدين ، ففي قصيدته " الى الله " (٢) يقول :

يا اله الوجود هذي جراح في فؤادي تشكو اليك الدواهي
هذه زفرة يسمعها الهم التي سمع الغناء الساهي

(١) رجاء النقاش ، ابو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة ، ص ٦٥ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٩٨ .

هذه مهجة الشقاء تنالجك فهل انت سامع يا الهي

ثم يشير الشاعر الى المصائب التي حلت به فيقول :

انت انزلتني الى ظلمة الارض وقد كنت في صباح زاه

انت عذبتني بدقة حسي وتعقبتني بكل الدواعي

بالاسس بالسقام ، بالهم ، بالوحشة ، باليأس ، بالشقاء المتناحي

ويظهر ضيق الشاعر ، واضطراب اعصابه ، وقلة صبره ، حين يقول :

٩٤ | يا رباح الوجود ، سيرى يعنف وتفتني بصوتك الاواه
وانفحيتني من روحك الفخم ما يبلغ صوتي آذان هذا الاله
فهو يصغي الى القوى ، ولا يصغي لصوت بين العواصف واواه

ثم يقول :

٩٤ | خيروني هل للورى من اله ، واحم - مثل زعمهم - اواه

انني لم اجده في هاته الدنيا ، فهل خلف اقفا من اله

لقد تمرد الشاعر ، وخرج عن اطوار النفس الموثومة التي تنسم
بببرد اليقين ، ولا تتلظى بنار الشك ، ولكن هل استمر الشاعر في تمرده
هل اتفق مع نفسه وضميره فيما قال ؟

استمع اليه يعلن التوبة ، ويشعر بتبكيته الضمير ، انه يعاود
اللجوء الى الله ، ويطلب منه العفو ، ويرجووه السماح ، مما ارتكب
من اثم .

ما الذي قد اتيت يا قلبي الباكي ؟ وماذا قد قلته يا شفاهي
يا الهي قد انطق الهم قلبي بالذي كان .. فاغفريا الهي

قدم اليأس والكآبة أسست قلبي المتصب ، الغريب الواهي
فتشظى ، وتلك بعرض شظاياها ، فسامع قنوطه المتناهي

ثم يعود ليؤكد ان قلبه هو معبد الحق ، يعمره الايمان بنور
الله ونقائه :

فهو يا رب معبد الحق ، والايمان والنور والنقاء الالهسي
وهو ناي الجمال ، والحب ، والاحلام ، لكن حطمته الدواعي (١)

عذا التمرد الرومنسي ، وراءه عقيدة راسخة بوجود اله ، وايمان
بالعالم الآخر ، الذي تتحقق فيه العدالة ، وتجزى كل نفس بما عملت ،
كتاب ابو القاسم الشابي رسالة الى صديقه الاستاذ محمد الحليوي ، يشكو
فيها عرض قلبه ، يظهر فيه ايمانه بالبعث والنشور " لا تألم يا صديقي
لاخيك ، فان قلبي هو منبع آلامي ، في عذا العالم ، ومن يدري ؟
لعله سيكون منبعا لمثل عذاته الآلام في العالم الآخر . (٢)

لقد آمن الشابي برحمة الله ، ولجأ اليه شاكيا حاله ، كلما عضة
الالم ، او تكالبت عليه الصائب . قال يشكو الى الله مرورا بالده ، وما
الحقه به من شقاء وألم "آه . ! رب ! اشقيتني وما اشقيت احدا من
عبيدك ، رب ! عذبتني وانا عبيدك الذي لم يجذف باسمك ، ولا كفسر
بنسائك ، رب ! رحماك ! فان عبي القدر علي شديد " (٣)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٠١ .

(٢) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته - شعره ، ص ٦٠ .

(٣) عن رسالة بعث بها الى صديقه محمد الحليوي وردت في كتاب ابو القاسم محمد كرو

ويظهر ايمان الشابي العميق بالله حين يجد ان الدنيا ولهوها
وكل ما بها من جمال ، وأسباب لذة ومتعة ، لا تستهويه عن عظمة الله .

ان من اصغى الى صوت الفنون وصدى الاحداث
ليس تستهويه الحان الطيور
بين ازهار الربيع الساحرة
وابتسامات الحياة الساحرة عن جلال الله (١)

ولعل احسن ما يوضح هذا الامر ، ويؤكد رسوخ العقيدة عند
أبي القاسم ، هو رد ابي القاسم نفسه على سؤال وجهه له صديقه
محمد الحليوي يطلب فيه ابداء رأيه في بيت قاله الشابي :

حاملًا كالأله قلبًا كبيرًا فيه ما في الوجود من اكوان

فأجابه الشابي :

" ان الفنان يا صديقي لا ينهني ان يصغي لغير ذلك الصوت القوي
العميق ، الداوي في اعماق قلبه ، اما اذا اصغى الى الناس وما يقولون ،
وسار في عاتق الدنيا بأقدامهم ، ورآها بانبصارهم ، وأصغى اليها بأذانهم
فقد كثر بالفن وخان رسالة الحياة .

ولو شئت ان اسوق الابيات التي لي ، على غرار بيتك هذا ، في
التشبيه بالاله ، لاكثر ، وخرج بي القلم عن غايته ، ولكنك ستري ذلك
في الديوان ان شاء الله ، وانني لاعشق ايمانًا بالله من كل احد ،
حينما اعبر بهاته التصامير الكافرة في نظراؤلك الناس ، فالالوهية وما
نعرف منها هي رمز للمثل العليا ، التي نصبو اليها بأرواحنا ، وتشخص
اليها بابصارنا في عاتق الحياة ، ولذلك اذا اردنا ان نعبر عن معنى

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٩

نحس له بجلال المثل الاعلى وسموه ، فانما سيلنا في ذلك ان نفرغ عليه رداً اللوحية التي هي اسمى ما تتصوره الانسانية من جمال المثل الاعلى وجلاله " (١)

٥ - موقفه من القديم ودعوته الى التجديد :

تظهر دعوة الشاذلي الجديد ، ومحاربهه بعض مظاهر القديم في كتابه " الخيال الشعري عند العرب " وقد القاه على شكل محاضرة في القاعة الخلدونية بتونس عام ١٩٢٩ .

والكتاب يحتوى ثمة وأربعين صفحة من القطع المتوسط ، تسع صفحات منها اهداء ، وكلمة المؤلف ، والقدمة . اما الصفحات الباقية فقد تناولت الموضوعات التالية :

- ١ - الخيال : تعريفه ونشأته من وجهة نظر الكاتب
- ٢ - الخيال الشعري والاساطير العربية
- ٣ - الخيال الشعري والطبيعة في رأى الادب العربي
- ٤ - الخيال الشعري والمرأة في رأى الادب العربي
- ٥ - الخيال الشعري والقصة في رأى الادب العربي
- ٦ - فكرة عامة عن الادب العربي
- ٧ - السروح العربية

✓ فهو حين تكلم عن : الخيال الشعري والاساطير العربية كان كل وكديه ان يثبت ان الخيال العربي كان قاصراً عن اختراع الاساطير والملاحم

(١) محمد الحليوي ، مع الشاذلي ، سلسلة "كتاب البعث" تونس ١٩٥٥ ، ص ٦٢ .

بمعناها الواسع كما عرفها اليونان القدماء ، ولكنه لا ينفي وجود اساطير عربية جاهلية الا انه يرى انها ضحيلة الخيال ، لا تدل على تعمق فلسفي في معنى الحياة ، والنور الس ما وراء الطبيعة فهو يقول :

"ورأيتني في هذه الاساطير هو اني لاحظتها من وضاعة الفن واشراق الحياء ، وان من المحال ان يجد الباحث فيها ما ألفان يجده في اساطير اليونان والرومان ، من ذلك الخيال الخصب الجميل ، ومن تلك العذوبة الشعرية التي تتفجر منها الفلسفة الفضة الناعمة تفجر الفئج العذب^(١)" ثم يعرض لعدد من الاساطير العربية ، مثل اسطورة الغول ، واسطورة الهامة ، واسطورة شياطين الشعراء ، واسطورة النجوم ، ليقول معقبا عليها " فهل رأيت فيما تلوته عليكم من اساطير العرب واحدة تشرق بالفن والحياة ، كما يشرق الكوكب بالنور الجميل والوردة بالعطر الازرج ؟ وكذلك كانت اساطير العرب وثيمة جامدة جافية لسم تفقه الحق ، ولا تذوقت لذة الخيال ، وأوهام ممبردة شاردة لا تعرف الفكر ولا اشتمت على شيء من فلسفة الحياة^(٢) "

ومثل هذا الموضوع عرض له الكثيرون قبيل ابي القاسم وبعده ، واحب ان اشير هنا الى محاضرة القاها الدكتور سليمان رميح ، على طلبة السنة الاولى للماجستير في الجامعة الازهرية بعنوان " خواص الشعر الجاهلي " الشعر الجاهلي فنائي لا قصصي ولا تشعيلي " نفس فيها الدكتور وجود قصص جاهلي بالمصنئ الحديث للقصص ، ونفس وجود ملاحم شعرية كملك التي عرفها اليونان والرومان . مع ان مادة هذه القصص

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، الشركة القومية للنشر

والتوزيع ، تونس ، ١٩٦١ ، ص ٣٣ ، ٣٨ .

تفسد توافرت في الجاهلية ، هذه حروب العرب فيما بينهم ،
وبين الفرس والاعباش ، ثم حروبهم الداخلية التي جعلت ايامهم
سلسلة وقائع وأيام ، وهذه اساطيرهم العادية الذاهبة الى ابعاد
أفوار الماضي ، وهؤلاء ابطالهم من الانس والجن ، وهذه تقاليدهم
ومذاهبهم الخيالية والوهمية كلها مادة خصبة كافية تمسك
"لهوميرهم" ان وجد ان ينظم اليسانة عربية حظيرة ، ويرد الدكتور
ربيع عجز العرب عن ذلك التي اسباب تتعلق بالشاعر العربي نفسه ،
وبالشعر العربي وخواصه ، وبالشعب العربي وحياته الاجتماعية
ومواهبه النفسية " (١)

وهكذا يتضح ان هناك من اتفق مع ابي القاسم في هذا

الموضوع ولكن مع تلاف في الاسلوب وطريقة العرض .

أما في موضوع "الخيال الشعري والطبيعة في رأى الادب العربي" :

نجد الشابي يقرر ان الشاعر الجاهلي يشكل غاض ، والعربي بشكل
عام لم يتفاعل مع الطبيعة ، ولم يتمثل ايحاءاتها ، وعرض لطائفة من
شعر الطبيعة في العصرين الجاهلي والاموي ، وعقب على ذلك بقوله
" فقد رأيت ان ادب هذين العصرين قد كان لا يعرض لوصف مناظر
الطبيعة الا اذا دعت اليها الضرورة ، دون ان يسهب في الوصف ، ويشبع
القول ، وكيف انه اذا تعدث عن ظواهر الطبيعة اسهب في القول وأطال
البيان ولكنه في ذلك لا يتعدث عن الطبيعة بشغف الشاعر ، وخشوع المتعبد
بل يتناولها تناول القاص الذي لا يحفل بجلال المشهد أو جماله وانما الذي
يهمه ان يصفه كما رآه ، دون ان يخلق عليه حلة من شعوره او عبقا من عواطفه .

(١) د . سليمان ربيع ، محاضرة القاها على طالب السنة الاولى للماجستير ،

في جامعة الازهر ، للعام الدرا سي ١٩٧٣ / ٧٢ ، ص ٨٥ - ٩٨ .

٩٨ / ٠٠٠

ويعمل ذلك بقوله : " وان لهذا علته المعقولة ، فقد عاش العرب في وسط لا يعرف سحر الجمال الطبيعي ، فلم يتحدث اديبهم عن هذا الجمال ، وكيف يتحدث عنه ، وعولم يعرفه ؟ ثم عولم يتحدث عن الطبيعة بلهجة المعجب المأخوذ ، لان الطبيعة لم تخلع على ارضهم من نضارة الحسن ما يحرك في قلوبهم ادق وشائج الحسن ، ويفتح قلوبهم لتذوق الوان الجمال فظلت قلوبهم موصدة لا تعرف عاتيه اللذة ، ولا تفقه ذياك الشهور ، زيادة عن انهم لم يختلطوا بغيرهم من شعوب الارض اختلاطا كبيرا يلطف الطبع ويرقق المزاج " (١)

ثم يعرض لنماذج من الشعر العباسي عند شعراء اجدادنا وصف المناظر الطبيعية من مثل ابي تمام ، والبحتري ، وابن الرواسي ، ويعلق على ذلك بقوله " ولكن هذا الفن الوليد لم يكثر كثرة مطابقة في الادب العباسي " (٢)

ويعرض لنماذج من شعر الطبيعة الاندلسي ويؤكد كثرته ، الا انه اخذ عليه وصفه الحسي للمنظر دون الاندماج فيه او شخصيته .

وبعد ذلك يعرض نموذجين لشاعرين من شعراء العرب ، أولاهما "للأمرتين" وأخراهما "لجيتي" ويقارن بينهما من جهة وبين نماذج عربية من جهة أخرى .

ويصل الى نتيجة " ان شعراء العربية لم يعبروا عن مثل عاتيه الاحساسات الشعرية العميقة لانهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرة الحسي

(١) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٢ . ٩٩ / ٠٠٠

الخاشع الى الخبي الجليل ، وانما كانوا ينظرون اليها نظرتهم التي ورداء
منمق ، وطراز جميل ، لا تزيد عن الاعجاب البسيط (١)

والباحث لا يستطيع ان يفت امام رأى الشابي ويناقشه مناقشة تفصيلية

لان ذلك خارج عن نطاق دراسته ولكن الذي أرى ان انوه به ، ان
مقارنة الشاعر بين شعراء عرب عاشوا في العصر الوسيط بشعراء غربيين
عاشوا في القرن التاسع عشر ، اختلفت بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية
والنفسية هي مقارنة ليست عادلة ، لم تراع تأثير الزمان والمكان . كما
ارى ان الشاعر متأثر بآراء المدرسة الرومنسية التي كان لامرتين علما من
اعلامها ، والتي تسبغ على الطبيعة الحياة ، وتدير معها حوارا
تخاطبها ، وتسمع عصفها ، تذوب فيها ، وتشخص مناظرها ، ولكن الادب
المصري في عصوره لم يقدم نماذج من ذلك

أما في موضوع "الخيال الشعري والمرأة في رأى الادب المصري :

يرى ابو القاسم الشابي ان المرأة حظيت بقسط وافر من اهتمام الشاعر
المصري ويرى " انهم تجاوزوا في التذني بالمرأة ككل حد حتى اصبحت
هي اللحن الجميل الذي تستهل به القصائد ، وهي الكلمة السحرية
التي تنفتح لها كنوز الشعر ، حتى اصبحت عند عم كاله الشعر عند
قدماء اليونان ، لا يبدأون الشعر الا بنجواعا " (٢)

ولكنه يأخذ عليهم اهتمامهم بجسد المرأة والمتعمه بها ، ووصف
محاسنها الظاهرة دون الفؤوس التي روحها . ويقسو الشابي قسوة عنيفة

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٦٢ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤

على الشاعر العربي وعلى الادب العربي حين يقول :

" اجمل فان نظرة الادب العربي الى المرأة نظرة دنيئة سافلة
منحطة الى اقصى قرار المادة ، لا تفهم من المرأة الا انها جسد يشتهي
ومتعة من متع العيش الدنيء * ٠٠٠ فالشاعر العربي لا يتكلم عما وراء
جسد المرأة من تلك المعاني العميقة السامية ، ولكنه مجيد كل الاجادة
ان اراد ان يحدث عن قدها الا عيف المشوق ، وعن طرفها اللامع الوسنان
وعن وجهها المتورد المنضور وما الى ذلك من تلك الاوصاف المادية
اللقاه امام كل رائج وغاد " (١)

ثم يعرض نماذج شعرية من الغزل الحسي العربي ، ليصاود القول
" فنظر الادب العربية الى المرأة كنظرها الى الطبيعة او ادنى ، لا سمو
فيه ولا خيال ، وانما عوى مادي محض لا يكاد يرى فرقا بين المرأة
والسرداء وكأس من الخمر ، فالمرأة تتخذ لاشباع شهوات الجسد ، والرداء
يقي الجسم ساجرة الصيف ، ويدفع عنه عادية الشتاء ، وكأس الخمر
يتلمهن به آناء الفراغ " (٢)

ولكن اذا كانت هذه مأخذ الشابي على شعراء العرب فسي
موقفهم من المرأة فما هو الموقف الذي يريده ؟ أو ما هي نظرة الشابي
للمرأة ؟ انه يود ان يتفنى العاشق بجمال محبوبته الروحي ، لا يتفنى
بتلك المرأة التي تضم وتشم ثم تتصوح وتذوى . يود ان يتكلم العاشق
عما وراء جسد المرأة من شعور سطاوى رقيق ، وعاطفة ندية ساجسة ،
واحلام عذبة ستحبه تتألق سناء وبهجة ، وتشمل الصالم كله بالعطف
والحنان " (٣)

(١) و (٢) و (٣) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٧٣ ، ٧٤ ،

٧٧ ، ٩٠ ، ٩١ .

ولكنني قبل ان ابدى رأبي ، أود أن أسأل سؤالاً ، هل التزم الشابي
بدعواه ؟؟ هل نظر الى المرأة نظرة روحية فحسب ؟؟ ألم يتغزل
الشابي بمفاتن محبوبته الجسدية ؟؟ ألم يلد بتمتة جسدية منها ؟؟
دعونا نقرأ بعض الابيات من قصيدته تحت الفصون . (١)

ما ارق الشباب في جسمك الغض ، وفي جيدك البديع الثمين
وادق الجمال في طرفك الساعي ، وفي ثغرى الجميل الحزين
وألد الحياة حين تغنين ، فأعطني لصوتك المحزون

احب الشاعر فتاته ورناء اليها ، ثم اشتها قبلة ، بل قبلها :

قالت الحب ثم غنت لقلبي ، قبلا عبقرية التلحين
قبلا علمت فتاوى الاغاني ، وأنارت له ظلام السنين

ولما أفنق الشاعر من متعة القبلة الحارة قال :

وأفقتنا ، ققلت كالحالم المسحور ، "قولني ، تكلمي ، خبريني"
اي دنيا مسحورة أي رؤيا ، طالعتني ، في ضوء هذي الصيون"

ثم يقول :

أي خمر رشفت ، بل اي نار ، في شفاء بديعة التكوين
اي اثم قدس قد لبسنا ، برده في مائنا الميمون

ثم يعود يناجي محبوبته :

قبليني واسكري ثغرى الصادى ، وقلبي ، وفتنتي وجنوني
آه ، ما اعذب الغرام واحلى ، رنة اللثم في خشوع السكون

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢١ .

ثم ينهي قصيدته ، ممبراً اجتمهت تعبير عن لذة اللقاء :

وسكرنا هناك ، في عالم الاحلام تحت السماء ، تحت الفصون
وتواري الوجود عنا بما فيه وغبنا في عالم مفتون
ونسينا الحياة ، والموت والسكون وما فيه من منى ومنون

ان رأى الشابي في المرأة - الذي سبق ذكره - هو مثالي
بعيد عن الواقع ، فالمرأة عنده خير كامل وطهارة كاملة ، ونور شفاف
يهبط على حياة الانسان فيحمل اليه كل مصابي السعادة الروحية العميقة
لم يعرف الشابي ابدا الاعماق التي عرفها " المزاج الواقعي " والذي
ينظر نظرة انسانية الى الحياة لا نظرة " ملائكية " مبنية على الخيال ،
فالنظرة القديمة على المرأة على انها كائن حي تابع للرجل نظرة
خاصة ، ولكن النظرة المقابلة ايضاً والتي تعتبر المرأة كائناً اعلى من
الكائن الانساني كائناً شفافاً يوزع السحر ويشع منه النور ، هذه
النظرة ليست صحيحة بصورة مطلقة ، فالمرأة كائن انساني ، وعضو في
المجتمع وينطبق عليها ما ينطبق على الرجل من تقاييس الخبير
والشر" (١)

اما موضوع - الخيال الشعري والقصة في رأى الادب العربي :

فقد خلص منه بأن العرب لم يعرفوا القصة الشعرية أو النثرية بمعناها
الفني ، سوى بعض القصص الشعرية عند امرئ القيس ، وعمر بن ابي ربيعة
والتي تحققت فيها - خاصة عند عمر بن ربيعة - بعض الشروط في

(١) رجاء النقاش ، ابو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة ، ص ٦٩
١٠٣ / ٠٠٠

القصة الحديثة . وان القصر النثري ، لم يعرفه العرب الا بعد ترجمة
- التاليله ولبله - و - كلية ودمنه - (١)

ولعل اخطر موضوع هو - فكرة عامة عن الادب العربي - :

وكان خلاصة لدراسة عن الموضوعات السابقة ، وانتهى بأحكام قاسيه ، وصم
فيها الادب العربي بأنه " مادي لا سموفيه ولا المهام ولا تشوؤة الى
المستقبل ، ولا نظر الى صميم الاشياء ولباب الحقائق ، وانه كلمة ساذجة
لا تعبر عن معنى عميق بعيد القرار ولا تفصح عن فكريته بل بأقصى
ناحية من نواحي النفوس

وحاول ابو القاسم ان يبرر قوله ، وفي ذهنه ان كلامه لن يلقى
تأييدا من الجميع وان فئة من انصار القديم ستنهض لمناومته .

" على اننى حين اتقول هذا الذى قد يراه بمض الناس خطيئة
لا تنفر ، لا انكر ان الادب العربي قد اجاد ايما اجادة فيما تخصص فيه
من وصف المظاهر البادية وما بينها من تخالف أو تآلف أو تشابه أو
تباين ، بل ربما فاق كثيرا من الاداب الاخرى في هذا الصدد ، ولا
أقول ان الادب العربي جامد ميت لم يمثل منازع تلك الشعوب التي
عاش بينها تمثلا صحيحا ولا تقدم لها غذاءها الروحي الذي تتطلبه
اشواقها ومشاغرها ، لان الادب العربي كان في جميع المصور التي
تحدثنا عنها ادبا حيا صحيحا فياضا بكل ما تصبو اليه آمال تلك
الشعوب من صور الحياة ومشاكلها المختلفة " (٢)

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،

إذا كان هذا هو رأي أبي القاسم في الأدب العربي ، وأنه أدب
حي عبر عن مشاعر الأمة وأعدائها ، وحمل فكرها ، ونوه باتجاهاتها ،
فما الذي يريد أبو القاسم منا ؟

أنه يرى أن الأدب العربي القديم خدم عصره ، وعبر عن نفوس
أصحابه ، ونحن بالتالي يلزمنا أدب يخدم عصرنا ، ويعبر عن نفوسنا
"لهذا لا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي
ينبغي أن يكون ، ليس لنا إلا احتذائهم ومحاكاته في أسلوبه وروحته
ومعناه ، بل يجب أن نعدّه كأدب من الأدب القديمه التي نحببها
ونحترمها ليس غير ، أما أن نسمو هذا الإعجاب إلى التقديس
والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا ، لأن لكل عصر حياته
التي يجبها ، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها
القشيب (١)

وكان ما توقعه الشاعر ، فهو هجوم هجومًا عنيفًا ورسي بمحاربة الماضي
وأجداده وعقوق آباءه وأجداده ، وبالشجيرة على القبايس السائدة ، والطرائق
الذائفة ، وبالسخرية من التراث المقدس الجليل ، وتشويهه بحاسنه ،
ومسخ جماله ٠٠٠ وقد نقدته الكثيرون في داخل تونس وخارجها ،
ولعل أشهرهم الدكتور مختار الوكيل ، ولكن كيف دافع الشاعر عن
نفسه ؟ وما هي المبررات التي ساقها ، لنسمع ما قاله ردا على نقد
الدكتور مختار الوكيل " أنني إذا كنت ادعو إلى التجديد الأدبي ، وأعمل
له ، فإن ذلك لا يدعمني إلى الهزء والسخرية بأدب الأجداد ، كما

(١) أبو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

قد حسبت ، بل انني لاؤمن بكل الايمان بما فيها من جمال فني وسحر
قوى ، واعتقد انها آتت في صورتها الحية لاجدادنا كل ما طمحت اليه
اشواقهم ، من غذاء معنوي دسم ، ولكنني أؤمن الى جانب ذلك ان في
الحياة آفاقا مجهولة ساحرة ، غير ما في الادب العربي من آفاق ، وان
هذا الادب قد شهد نلة آباءنا الروحية ، فانه لصا جز كل المعجز عن ان
يشبع ما في ارواحنا من جوع وعطش وطمح ، وانه اذا كان لزاما علينا
ان نعجب بهذا الادب ونفخر به كحلقة من سلسلة ذاتيتها العربية
وكنجم زعبي نرجع اليه كلما اردنا ان نصوغ لافكارنا حليها الساحر
الجميل ، فان ذلك الاعجاب لا ينبغي ان يتقلب في نفوسنا الى تقديس
فعبادة فجمود ، فاطباق لا بصارنا عن كل ما في السماء من اشعة
ونجم (١) .

ولكن هل استطاع ابو القاسم ان يفلت من زمام القديم ، وان لا ينج
على منواله ، ويستعير معانيه ؟ " انك تجد في بعض مقطوعاته ما
يذكرك بالمتنبي ، في ارساله الحكمة السائرة ، وبأبي العلاء في ارتقائه
الى سر من اسرار الحياة فهو يقول في مقطوعة المجد :

يود الفتى لو خاض عاصفة الردى	وسد الخيمس المجر والاسد الوردا
ليذكر امجاد الحروب ولو درى	حقيقتها ، ما رام من بينها مجدا
فما المجد ان تسكر الارض بالدا	وتركب في هيجائها فرسا نهيدا
ولكنه في ان تصد بهمة	عن العالم المرزوء ، فيض الاسى صدا (٢)

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته ، شمرة ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٥٦ . . . / ٠٦ .

فأنت تجد في هذه الأبيات ما يذكر بك بشعر المتنبي ، في وصف
مبارك سيف الدولة " فخور عاصفة الردى " و " صد الخمس المجر " و " الأسد
الورد " لم تكن من ابتكار الشاعر بقدر ما هي تقليد للمتنبي في قوله :
ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتك الهكر

وانت حين تقرأ قوله " سر مع الدهر "

سر مع الدهر لا تصدك الأهوال ، او تفزعك الأحداث
سر مع الدهر كيفما شاءت الدنيا ، ولا يخدعك النفاث
فالذي يرهيب الحياة شقي ، سخرت من مصيره الأحداث (١)

فيه تقليد للحكمة عند المتنبي وأبي تمام والمصري ، فالترجمان الدهر
شيء وانجح في الأدب القديم .

ومع ان الشابي هاجم القديم الا انه ظل رهين أساره ، فهو لم
يستطع الإفلات من الموازين الشعرية القديمة ، وقد بلغ من حفاظه على
القديم انه كان يعمد الى لون من ألوان المصارف ، فحين تقرأ قصيدته
" مفرجة من كتاب الدعوى " ومثلها :

غناه الامس وأظربه وشجاء اليوم فما فده ؟

تذكرنا بقصيدة الحمري الشهيرة :

يا ليل الصب متى فده اقيام الساعة موعده ؟

بل انك تجده يقتبس معاني القدماء ، فيقول من القصيدة نفسها :

يا للأيام فكم سمرت قلبها في الناس لتكده

هي مثل الماهر عاشقها تسقيه الخمر وتطرده

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٥٢ .

تعظيمك اليوم حلاوتها كالشهد ليسلمها غده (١)
تذكرنا بما قاله الشريف الرضي في رثاء أمه (٢)

وخلائق الدنيا خلائق موسى للمنع آونة والاعتناء
طورا تبادلك الصفاء وتارة تلقاك تنكرها من البغضاء

٦ - آشار الشابي الاديبية :

ترك الشابي آشارا أدبية ونثرية وشعرية ، أهمها :

(١) ديوانه أغاني الحياة :

ويقع في عثة وأربع وتسعين صفحة قياس $1.05 \times 22\%$ ، ويضم تسعين قصيدة ، ومقطوعة شعرية ، قدم له أخوه محمد أمين الشابي ، طبع الديوان في مصر عام ١٦٥٥ ، الترتيب بطبعه ونشره ، دار الكتب الشرقية .

اختار الشابي لديوانه اسم " أغاني الحياة " واعتمه بطبعه في مصر بإشراف وتقديم صديقه الدكتور احمد زكي ابو شادن " واعلن ابو شادي في عدد يناير ١٩٣٤ من اعداد مجلة اوبلو ، قرب ظهور ديوان الشابي " أغاني الحياة " الا ان مرض الشابي ووفاته بصد ذلك في التاسع من أكتوبر عام ١٩٣٤ حال دون ظهوره آنذاك . (٣)

(١) ابو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ١٠٦ ، ١٠٢ .

(٢) د . ابراهيم السامرائي ، نصوص ودراسات عربية وافريقية في اللغة والتاريخ والادب

وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة العراقية ، سلسلة الكتب الحديثة ص ٣٦-٣٨ .

(٣) د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الادب العربي الحديث ومدارسه ، الحلقة

الاولى ، دار الطباعة الحميدية ، بالازهر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٥٢ .

١٠٨/٠٠٠

وقيل ان الشابي كان ينسوي ارسال ديوانه لصديقه ابي شادي في نفس اليوم الذي توفي فيه . (١)

مات الشابي والديوان ينتظر من يقوم بضمه وتوزيعه ، وانتظره عشاق الشابي بفارغ الصبر ، ولكن الديوان لم ينشر الا عام ١٩٥٥ بعد احدى وعشرين سنة من وفاة صاحبه .

وانتقد الديوان في اخرجه ، الكثير من مميزات الديوان الجيد ولعل اهمها افتقاده تاريخ القصائد ، التي تتيح للدارس تتبع مراحل التطور التي مر بها ابو القاسم في حياته الادبية ، مع ان ابا القاسم كان قد رتب قصائده وفقا لتواريخها ، وظهر ذلك في رسالة ارسلها الى صديقه محمد الحلوي بتاريخ ١٩٣٣/٢/١٩ ، قال فيها " ٠٠٠ أما الآن فاني انتخب القصائد التي سأشعرها فيه ، واجمع تواريخها لارتبها على حسبها . (٢)

كذلك فان الديوان يتقصه التبويب والترتيب ، فلم ترتب القصائد فيه وفق ابجدية القوافي ، أو وفق موضوعاتها ، اضف الى ذلك اخفاء الطباعة المديدة ٠٠٠

(٢) الخيال الشعري عند الصرب :

محاضرة القاها الشاعر تحت اشراف النادي الادبي ، التابع لجمعية

(١) ابو القاسم محمد كرو ، آثار الشابي ومداه في الشرق ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت الطبعة الاولى ، فبراير ١٩٦١ ، ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩ . ١٠٩ / ٠٠٠

قدماء خريجي المدرسة الصادقية في تونس، وكان قد القاهما في
قاعة الجمعية الخلدونية يوم ٣٠ شعبان ١٣٤٧ - ١٩٢٩ .

ويقع الكتاب في مئة وأربعين صفحة ، من القطع المتوسط ، وطبع
الكتاب في نفس السنة ، وتولت نشره " دار المغرب " للطبع والنشر
في تونس ، لصاحبها الاستاذ زين الماهدين السنوسي ، وهو
الذي كتب مقدمته .

واعيد طبع الكتاب عام ١٩٦١ ، بإشراف الشركة القومية للنشر
والتوزيع بتونس .

وموضوع الكتاب هو دراسة نقدية مقارنة بين الخيال الشعري عند
المغرب وعند الأوروبيين .

(٣) القسيرة :

رواية غير منشورة ، ذكرها الاستاذ كرو ، نقلا عن الاستاذ زين
الماهدين السنوسي ، في كتاب الأخير " الادب التونسي في القرن
الرابع الهجري " (١)

(٤) جميل بهنسه :

قصة جميلة ، موجودة اليوم عند شقيقه الاستاذ أمين الشابي .

(٥) شعراء المغرب العربي :

دراسة لكتاب الاستاذ محمد المباسي القباچ - الادب العربي في
المغرب الاقصى - تناول الشابي الجزء الخاص بالشعراء الشبان

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته ، شعره ، ص ١٣٦ . ١١٠ / ٠٠٠

بالدراسة والتحليل ، ليلقيها محاضرة في النادي الادبي ، ولكنه لم يلق في النادي من يستمع اليه ، فتركها مخطوطة .

(٦) يوميات الشابي :

وهي مجموعة من المذكرات اليومية كتب فيها الشاعر خواطره ، وهي موجودة عند صديقه الاسنان ابراهيم ابورقمه بمدينة صفاقس .

(٧) رسائل الشابي :

كان قد وجهها لاصدقائه ، وهي تحمل الكثير من وجهات نظره ومن اشهر اصدقائه الذين تبادل معهم الرسائل : محمد الحليوي ، احمد زكي ابوشادي ، ابراهيم ناجي .

(٨) الادب العربي في العصر الحاضر :

دراسة قصيرة تقع في احدى عشرة صفحة ، قدم بها ديوان " الينبوع " للشاعر ابي شادي ، ضمنها آراء في الادب الحديث ورأيه في الشاعر الدكتور احمد زكي ابوشادي .

(٩) السكر :

مرحبة ذات فصلين .

(١٠) الهجرة المحمدية :

محاضرة ألقاها الشاعر في " نادي الطلاب " بـ (نموزر " بمناسبة ذكرى الهجرة المحمدية في سنة ١٣٥١ هـ .

(١١) مقالات مختلفة :

نشرها في المدييد من الصحف المصرية في صروتونس اعلمها

- (١) النفس التائهة
- (٢) القظة الاسلامية الحاضرة
- (٣) الشعر ماذا يجب ان يفهم منه وما هو قياسه الصحيح
- (٤) ايها القلب
- (٥) اغنية الالم
- (٦) صفحات دامية من حياة شاعر
- (٧) روح شائرة
- (٨) يقظة الاحساس واثرها في الفرد والجماعة
- (٩) الشعر والشاعر عندنا
- (١٠) لصوية الشعر
- (١١) الفنون والنفس المصرية (١)

* * *

(١) اعتمدت في موضوع آثار الشابي على ما أورده ، ابو القاسم محمد كرو ، في كتابه

الشابي حياته ، شعره ، ص ١٢٠ - ١٣٢ . ١١٢/٠٠٠

الباب الثاني

شعره وشاعريته

الفصل الاول

- ١ - تجربته الشعريه
- ٢ - منزلته الشعريه

١ - تجربته الشعريه :

أ (مفهومه للشعر :

لعلّ غير ما نبدأ به حين نتحدث عن تجربة الشابي الشعريه ، ان نتعرف على مفهومه للشعر ، وأن نعترف مقاييسه عنده ، هل الشعر في رأيه هو كل كلام موزون مقفى ، أم أنه احساس يختلج في نفس الشاعر فيعبر عنه هل الشعر عنده هو تلبية لمناسبة دعوي للمساهمة فيها ؟ أم أنه تلبية لاسساس اعتمل في صدره ؟ دعونا نستمع اليه في قصيدته " شعري " (١)

شعري نقاشة قلبي	ان جاشرفيه شعوري
لولا ما انجاب عني	غيم الحياة المطير
ولا وجدت اكتابي	ولا وجدت سروري
به تراني حزينا	أبكي بدمع حزين
به تراني طروبا	أجر ذيل حبوري

فالشعر عنده استجابة للنفس في شتى أحوالها وتعبير عن احساس في كل صوره ، يعبر فيه عن حزنه ان حزن ، وعن سروره

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٣٣

أن سر .

وفسي قصيدته " قلت للشعر " (١)

انت يا شعر فلذة من فؤادي	تتغنى ، وقداعة من وجودي
فيك ما في جوانحي من حنين	أبدى الى صميم الوجود
فيك ما في خواطري من بكاء	فيك ما في عواطفي عن نشيد
فيك ما في عوالمي من نجوم	ضاحكات غلف الغمام الشroud
فيك ما في عوالمي من ضباب	وسراب ويقظة وهجسود
فيك ما في طفولتي من سلام	وابتسام وغبطة وسسعود
فيك ما في شجيتي من حنين	وشجون ، وبهجة وجمود

فالشعر عنده هو الحياة كلها بصورها المتعددة ، فيسه
احلام طفولته ، وطموح شبابه ، فيه حبسه للحياة ، فيه تهيئة
من الفناء ، فيه غناؤه للنجوم ، وطربه لانا شيد الطيور فينه
ربيع عمره وخريفها ، شتاؤها وصيفها . بل الشعر عنده هو
قصة عمره كلها :

انت يا شعر قصة عن حياتي انت يا شعر صورة من وجودي

اذن فالشعر عند الشابي ، هو ما يصدر عن النفس ، صدور
الاشعة عن الشمس ، والاربيع عن الزهر ، دون تعمل أو تكلف ،
فذات الشاعر منبع شعره ، وان كل ما يقوله يجب ان يصدر عنها
دون خضوع للملابسات ، أو مناسبات تملي عليه استمع اليه يعرف
الشعر ، " الشعر يا صديقي ، تصوير وتعبير " ، تصوير لهذه الحياة

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨٦ .

التي تمر حواليك ، مغنية ضاحكة لاهية ، أو مقطبة واجمه باكية ،
أو وداعه حاله راضيه ، أو مجدفة ثائره ساخطه ، أو تصوير لآثار
هذه الحياة التي تعسبها في اعماق قلبك ، وتقلبات فكرك ،
وخلاجات نفسك ، ورفرفة أعلامك وعواطفك " (١)

فالشعر عنده ، هو الانفعال ، وجودة التعبير عن هذا
الانفعال ، مما جعل بعض الناقدين يرى ان الشعر هو " مرض " .
أبي القاسم ، لقد كانت العواطف عنده مرضا ناهشا يلهث ، واتعبه
الشعر حتى قتله ، ان الشعر قد كان هو السل الأكبر في حياة
هذا الشاعر المشتعل ، ومن اجله عاش يتقذّب بكل جمال يمر
به وان كان عذابه لذيذا . (٢)

ولكن اذا كان الشاعر قد حدد لنا من أين يجب ان ينبع
الشعر ، فانه لا يكتفي بذلك ، فمع اهتمامه بضمون الشعر ،
وصدق التعبير ، يجد ان مثل هذا الصدق لا بد ان يعتويه شكل
فني ، والا هبط من سماء الفن الى درك الحضيض ، فالشابي من
القائلين بأهمية المضمون والشكل في الفن ، وانه لا كرامة لمعنى
في ثوب غلق ، ولا كرامة لووشي يكسو جسما ضعلا ، وهو في ذلك
يقول :

" والتصبير عن تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل ،
مساؤه القوة والحياة ، يقرأه الناس فيعلمون انه قطعة انسانية من
لحم ودم ، وقلب وشعور لانهم يحسون انه قطعة من روح الشاعر

(١) أبو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٢٧٠

(٢) نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، منشورات مكتبة النهضة ، بيروت ،

الطبعة الثالثة ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

وعبق من عواطفه ، أو فلذذة حياه من فؤاد الحياة (١)

ويرى الشابي ان الشكل الفني يجب ان يقدّ على قسدر
المضمون ، وأن يتناسب معه ، كما تتناسب الملابس الجيدة الصنعة
مع اجسام لابسها ، فلا فائدة من ملابس مترهل يكسو جسما ناحلا
ولا فائدة من ملابس تسيّد حركة لابسها ، كذلك هو الشكل الفني
يجب ان يكون على اقدار المعاني خدامها لها ، معبرا عنها اجمل
تعبير ، يقول : " هذا هو الاسلوب الذي يكون دائما كضوء القمر
حينما يمثل سخط الحياة ، أو ثوران العواطف ، ويكون دائما كضوء
القمر ، حينما يمثل طمأنينة الحياة وسكون النفس ، ويكون رقيقا
شجيا كأنات ناي بعيد ، حينما يمثل احلام الحياة ، ونجوى القلوب
المتحابة ، ويكون كهيا مظلمة كقلب الظلام ، حينما يمثل بؤس الحياة
وأحزان البشر " (٢)

ويرى الشابي ان صدق الشاعر ، ودقة التصوير ، هي القياس
الوحيد للشعر ، " فالتصوير الصادق ، الذي يسريك تصورات الشاعر
أرقى من تصورات البشر ، والتعبير الفني الجميل الذي يكون قلبا
انسانيا حيا ، لذلك المعنى الذي يشملك ذلك ، هو الذي ينبغي
لك ان تبعث عن ، كلما قرأت قصيدا ، أو تلوت مقطوعا ، أو تصفحت
ديوانا ، فان وجدته فكن على يقين انك انما تقرأ شعر الحياة
وان اخطأته ، فاعلم انك تقرأ شعرا زائفا لا قيمة له في سوق
الخلود " (٣)

(١) (٢) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٢٧٠ - ٢٧١

ويعتد ان أوضح الشعاع مفهومه من حيث مضمون الشعر
وشكله دعنا نستمع اليه يحدثنا عن الاثر الذي ينبغي ان يحدثه
الشعر في قارئه ، وما هي مقاييس الحكم عليه صادقاً أو غير
صادق " لكي تدرك هذه الحقيقة فانظر هل هو من ذلك النوع
الذي يوسع أفق الحياة في نفسك ، ويجعلها محسّس بتغيرات الوجود
أكثر مما محسّس ، وتدرك من معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن
تدرك ، وينسبك وجودك الانساني لحداثة تستفرك في عالم الجمال
المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ، ويسخّج منه على نفسك ،
أقول انظر فان كان من هذا النوع فاعلم انك تقرأ شعراً الهيأ
لا تجود بمثله الحياة كثيراً ، والا فاعلم انك تقرأ مثلاً دون ذلك" (١)

ويؤمن الشابي ان الشاعر ، محثّره بالحياة الاجتماعية ،
وبالظروف الطبيعية التي تعييطه ، وبمالمه النفسي الذي يجول
فيه ، لا يستطيع ان يعبر عن ذلك كله بشعر صادق ، الا اذا
شعر بالمعاناة بحق ، وصد في ذلك عن احساس مرهف ، وتمثل
واع بكل ما يجري " فالشاعر لا يستطيع ان يخرج عن نفسه التي بين
جنبه ، وما في هذا العالم من سحر ولذة وألم ، وما خبطتته
الانسانية من فن ورأى ودين ، ولكنه حين يتحدث اليها بذلك في
آثاره لا يتحدث به الا بعد ان يحيا في قلبه ، ويتوحد في حياته
ويتضج بأصواء نفسه المشرفة ، فتبرز آثاره للدنيا موسومة بموسمه
ومطبوعه بطابعه الذي لا يزول" (٢)

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٢٧١

(٢) ابو القاسم الشابي ، الادب العربي في العصر الحاضر ، مقدمة ديوان الينبوع

احمد زكي ابوشادي ، الطبعة الاولى ١٩٣٤ ، صفح ٢٠٠ ، ش .

ويمد أن أوضح مقاييس الشعر الجيد ، يوضح مقاييس الشاعر الجيد فالشاعر عنده " هو الذى تقرأ شعره ، فتجده فيه انسا من لحم ودم يحيا ويتنفس ، ويشعر ويفكر ، ويجاونا بالعطف والحس والخيال ، وينسينا لحظة وجودنا المحسوس ، بما يخلصه علينا من جمال الفن وصوره ، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنيا هذا العالم ومدقراته ، اذا وجدنا هذا الشاعر ، فلنقرأه نسي ثقة وايمان بأنه شاعر حقا . . . والشاعر العظيم هو الذى يوفق في فنه الى المعادلة بين نسب العاطفة والفكر والخيال ، والاسلوب والسوزن ، بحيث يجعل بينها التجاوب الموسيقى الذى ينسجم في القصيدة انسجام النور والعطر ، والماء والهواء في الزهرة الجميلة الياقة" (١)

وحتى يتسنى للشاعر ذلك ، يجب عليه ان ينح الحرية ، فيجدد ما شاء في اسلوبه ، وطريقته نسي التفكير والعاطفة والخيال ويستلهم ما شاء من كل هذا التراث المعنوى العظيم الذى يشمل كل ما ادخرته الانسانية ، من فن وفلسفة ورأى ودين ، لا فرق في ذلك بين ما كان منه عربيا أو أجنبيا .

ب) تأثيره بالمدارس الادبية المختلفة :

ولكن كيف تحقق لابي القاسم ، مفهوم الشعر هذا ؟ هل هو وليد صادفة ؟ ام نتيجة كثرة اطلاع وتأثر بالمدارس الادبية المختلفة ؟

(١) ابو القاسم الشابي ، الادب العربي في العصر الحاضر ، مقدمة ديوان الينبوع - احمد زكي ابو شادى - الطبعة الاولى ١٩٣٤ ، صفحة ٢٠٠ ، ١١٩ / ٠٠٠

لا شك ان الانسان مهما بلغ من العبقرية والنبوغ ، لا يمكن أن يصوغ نظرية أو يفتق ذهنه عن اختراع ، إلا بالدراسة العميقة الواعية المدعمة بذكاء وفطنة ، للعديد من المنجزات القومية والانسانية ، فما هي المؤثرات الصاعدة التي صقلت مفهوم الشابي للشعر ، وأثرت في شعره ؟ واجيب ان تجربة الشابي الشعرية قد تأثرت بما يلي :

١ - تأثره بالادب العربي القديم :

نشأ الشابي في اسرة محافظة ، فكان ابوه عالما من علماء الازهر ، تضم مكتبته العديد من الكتب الدينية واللغوية والادبية التي كانت مدرسته الاولى ، ثم انتقل بعد ذلك الى جامع الزيتونة وهو معقل الثقافة العربية الاسلامية في تونس ، وفيه تلقى علومه وثقافته ، واكسب على دراسة العديد من امهات الكتب العربية ، من امثال الافاني ، والشعر والشعراء ، والكامل ، والعقد الفريد وغيرها ، كلها امدته بخصيلة لغوية ، وساعدت على اشراق اسلوبه .

٢ - تأثره بقراءاته للاداب الاجنبية وبمدرسة الديوان :

مع ان الشابي كان يجهل اللغات الاجنبية ، الا انه ألح على قراءة ما ترجمه منها ، اعلم الادب العربي في مصر ، من امثال العقاد ، وابراهيم ناجي ، والملازني ، وغيرهم ، فكثيرا ما قرأ لشاعر الرومانسيه "لامارتين" وقرأها ترجم من آثار "دي موسي" وهو جوف وغيرهم ، وكان لقراءته هذه ابعث الاثر في تجربته الشعرية بل انه تحييز لهؤلاء ، واتخذهم في كثير من الحالات قدوة له وعقد بينهم وبين شعراء العربية العديد من المقارنات .

وتأثره بمدرسة الديوان واضح كل الوضوح فمفهوم الشعر عنده لا يختلف كثيراً عن مفهوم الشعر عند العقاد .

٣ - تأثره بجماعة أوصلو :

تأثر أبو القاسم الشابي تأثراً مباشراً بجماعة "أوصلو" تلك المدرسة الأدبية التي أقامها الدكتور أحمد زكي أبو شادي في سبتمبر ١٩٣٢ ، وتمتاز هذه المدرسة بدعوتها للجديد ، وقد ضمت في عضويتها العديد من شعراء العربية وأدبائها ، في مصر وغيرها من بلاد العرب ، انتسب أبو القاسم إلى هذه الهيئة التي طالما قرأ مجلتها - أوصلو - ووجد فيها ما يروى ظمأه في تطلعه نحو الجديد ، ونشرت له هذه المجلة بعض قصائده قبل أن ينتسب إلى عضويتها ، ولكنه سرعان ما اشترك فيها ، وقبول اشتراكه بالترحيب ، وهو يروى قصة علاقته مع "أوصلو" في رسالة بحثها إلى صديقه محمد العليوي يقول " أما علاقتي أنا "أوصلو" فقد حدثت في رسالتي السالفة ، بأنني وجهت لها قصيدتين ، ومعلم الاشتراك ، وطلبت من صاحبها أن يوجه إليّ الأعداد الأولى منها ، وقد ورد عليّ كتاب منه بعد ذلك ، وطيه معلم الاشتراك نفسه قائلاً " انه يستميجني عذراً في أرجاعه لان المجلة توجه إليّ كهدية خالصة ، وصحبته ورقه مطبوعة فيها طلب العضوية لجمعية "أوصلو" وطلب مني تعميرها وأعضائها وتوجيهها حتى يضمن اسمي في ثبت أعضائها ، كما طلب مني أن أرسل صورتي لتتشر بالمجلة مع شعري ، وقد ضمن رسالته منا سمحت به نفسه من شأنا وأعجاب ، كما أهدى إليّ نسخة من

ديوان له اسمه " اشعة وظلال " ووجه التي الاعداد الاولى
من المجلة " (١)

وقد ربطت ابو القاسم صداقات حميمة بعدد من اعضاء
هذه الهيئة من امثال ابراهيم ناجي ، وعبد العزيز عتيق ، واحمد
زكي ابوشادي . وكان ابوشادي شديد الاعجاب بعبقرية الشابي
الشعرية ، ومما يظهر مدى اعجاب طلبة من ابي القاسم ان يكتب
مقدمة ديوانه " الينبوع " الذي صدر في عام ١٩٢٤ في نفس العام
الذي توفي فيه الشابي .

كما كان ابوشادي يزمع نشر ديوان ابي القاسم - اغاني
الحياة - ، قيل أن أبا القاسم كان ينوي ارسال ديوانه الى ابي
شادي في نفس اليوم الذي توفي فيه .

وعندما توفي الشابي كان مجموع ما نشره من شعره في
مجلة " أوصلو " اربع عشرة قصيدة ، وثلاث مقطوعات ، كان آخرها
قصيدة " ارادة الحياة " و " نشيد الجبار " (٢)

وكان لهذه الجماعة اكبر الاثر في تعريف ابي القاسم
للعديد من قراء العربية ممن يقرأون مجلتهم .

ويسرى الدكتور محمد عبد المنعم خلفي ، ان تأثر الشابي
بهذه المدرسة كان واضحا في شعره ان أخذ فكرة قصيدة

(١) من رسالة بعث بها ابو القاسم لصديقه محمد الحليوي ، نشرت في مجلة الفكر
التونسي ، أوردها ابو القاسم محمد كرو ، في كتابه آثار الشابي وصداه في
الشرق ، ص ٣٥ ، ٣٦
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

- ارادة الحياة - من قصيدة لابي شادى عنوانها - النهضة اراده -
وكذلك قصيدته - عذبت انت - ٠٠٠ الخ - تجاوب فيها مع قصيدة
ابي شادى " عروس المأتسم " ومطلعها :

عذبة انت في الخفاء وفي الجهد ر ، وفي الهجريا اغاني الظالم

وانه تجاوب في موسيقاه في قصيدته " الصباح الجديد "

التي مطلعها :

اسكتي يا جراح أسكتي يا شجون

مع قصيدتين ، لابي شادى أولهما ، السوداع ومطلعها

انتهب يا شعاع نبخر قلبي الحزين

وثانيتها قصيدته " بعد الصيف "

اضحككي يا رسال من هدير المياه

فقد تجاوب الشابي مع هاتين القصيدتين في الموسيقى والصور

كما تجاوب معهما كذلك الشاعر ابراهيم ناجي ، وكان الشابي وناجي
معجبين بكلتا القصيدتين " (١)

اما الدكتور محمد مندور فيرى ان ابا القاسم كان اقوى جماعة

" أو بطلو " طباقة يقول " اننا نستطيع ان نبطور شخصية ابي القاسم

في انه كان روحا ثائثه ، ومن هذه السروح شعره الذي ربما

كان اقوى هذه الجماعة طباقة شعرية . وحدة عاطفية ، وثورة روح ،

وان تكن تلك القوة الضخمة قد ذهبت معظمها - لسوء الحظ - في

(١) د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الادب العربي الحديث ومدارسه

الحلقة الاولى ، دار الطباعة المحمدية بالازهر بالقاهرة ، ص ٢٨٥ .

مصارعة ذلك المرض المميت الذي عاجل هذا الشاعر ، وهو لا يزال
فخر الشباب ، ولم يفارقه حتى قضى عليه . (١)

٤ - تأثره بشعراء المهجر :

كان ابو القاسم شديد الشغف بالقراءة ، فهو ان كان قد
قرأ الادب العربي القديم من مصادر اوليه ، وقرأ الادب الاجنبي
المترجم ، وقرأ ما انتجه شعراء ومدرسة "أوبللو" ، وما انتجته
شعراء مدرسة الديوان ، وتأثر بكل ذلك ، أكب على دراسة الادب
المهجري ، وتأثر به ايضا ، فأنت تلمس عنده النقد اللانع ، والحدب
على الانسانيه المعذبه ، والسخرية المره بالحياة الراكدة ، وهذه
اهم ما امتازت به المدرسة المهجرية .

ويرى بعض الدارسين ان تأثير جبران في الشابي كان واضحا
حتى ان الاستاذ خليفة محمد التليسي ، ألف كتابا عنوانه " الشابي
وجبران " واستشهد بالعديد من النصوص لكل منهما يثبت تأثر
الشابي بجبران .

ويرى ان ثورة الشابي على شعبه الذي يراه غير جدير
بالحياة في قوله :

لست يا شيخ للحياة بأهل انت داء يبيدها وتبيده

وقوله :
أيها الشعب انت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغس

(١) د . محمد مندور ، الشابي روح ثائرة ، مجلة المجلة القاهرة ، ٦٤ يونيو
١٩٥٧ ، وردت في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم كرو
ص ٩٦ .
١٢٤ / ٠٠٠

انما هي مأخوذة من جبران القائل "والحياة عنم يرافق الشبية ،
وجد يلاحق الكهولة ، وحكمة تتبع الشيوخ ، اما انتم يا بني أُمي ، فقد
ولدتم شيوخا عاجزين ، ثم صغرت نفوسكم ، وتقلصت جلودكم ، فصرتم
تتقلبون على الاوحال ، وتترامون بالحجارة . " (١)

ويقول الاستاذ التليسي ايضا ان تأثر الشابي بجبران لم
يقتصر على المضمون دون الشكل ، بل تعداه الى الشكل الفني والصيغة .
يقول جبران :

" من يهوى النور فالنور يهواه "

ويقول الشابي :

ومن ناحت النور احلامه يباركه النور أني ظهر

ويقول جبران في غربته بين قومه " ثم التقى برعط من الشيوخ ،
فيوثون نصوى بأصابع وثيقة قائلين : هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن
والغبلان . وذلك ما قاله اعداء الشابي فيه ، وهي عبارة جبرانية نظمها
في نسق رائع .

وقد اضاع الرشاد في ملعب الجن فيا يؤسه اصيب بمس

ويرى كذلك ان التفني بالذباب الذي كثر في شعر الشابي انما هو
نخمة جبرانية ، وينتهي الاستاذ التليسي بنتيجة يقول " والمشابهة بينه وبين
جبران اعظم من ان توحىها المصادفة او وقوع الحاضر على الحاضر ، ولكنها
المشابهة التي تتيحها التلمذة ، تلمذه من عكف على جبران " (٢)

والباحث يتفق مع الاستاذ التليسي في كثير مما قال ، ولكنني
أحب ان اضيف ان كلام جبران والشابي كانا تلميذين مخلصين

(١) خليفه محمد التليسي ، الشابي وجبران ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ،

الطبعة الثانية ١٩٦٧ ، ص ٤٨ .

١٢٥/٠٠٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٣ - ٥٤ .

للمدرسة الرومانسية ، فالتفني بالغاب والثورة والتسرد ، وتجيد الحياة والذاتية المفرطة في الشعر ، ليست خاصة في شعر جبران فحسب ، بل هي من سمات المدرسة الرومانسية التي انتمى اليها كلاهما

كما ان الاستاذ ابو القاسم كرو ، أكد حقيقة اثر جبران البارز في الشابي ، وعرض نماذج لكلا الشعاعين تؤيد مذهبه .

قال جبران :

وما السعادة في الدنيا سوى شبح يرحى فان صار جسما ملأه البشر

ويقول الشابي :

وما السعادة في الدنيا سوى حلم ناء تضحى لها ايامها الامم

ويلاحظ ان صدرى البيتين متشابهان ، وان الشابي لم يغير سوى اللفظ الاخير ، وكذلك يبدو التشابه واضحا في عجز البيتين الا ان الشابي كان اعمق من جبران ، وأصدق تعبيراً منه للسعادة في واقع الناس . (١)

ولكن هل كان ابو القاسم بعد هذه الامثلة التي ساقها كل من الاستاذين التليسي ، وكرو ، تلميذا فحسب للمدرسة الرومانسية ، وان ما قاله لم يعد الا تكرارا لما قاله جبران أو نعيمه ، دون اصالة ودون ان يسكب في شعره من روحه وفنه ؟ دعونا نستمع الى ما قاله الدكتور درويش الجندى " وممن تأثر بسنزة المهجريين التصويرية خارج مصر والشام ، أبو القاسم الشابي

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٥٨ .

التونسي ، ولكن صورته يغلب عليها الصدق والوضوح (١).

أما الدكتور محمد مندور فيقول في هذا المقام "وأنا بعد لا أنكر ما لا بد منه من ان الشابي قد طالع الكثير من الشعر العربي القديم والحديث ، بل من الاداب الغربية المترجمة الى اللغة العربية ومن هذه المطالعات ، تكونت ثقافته الشعرية والانسانية الصامة ، كما تثقفت سليقته ولكن الذي انكره هو ان يكون ابو القاسم الشابي ، قد تأثر بأحد تأثرا مباشرا ، بقدر ما تأثر بطبعه الخاص وهبقريته الفريده المتميزه ، وروحته الثائرة ، وصراعه الدائم مع ما شقيت به حياته من آلام وجحود ونكران فضلا عن المرض القاتل الذي يصارعه في بطولة وتحد حتى آخر رمق في حياته ، واننا لنحس في شعره روح الابطل الشهيد" (٢).

وبعد هذه هي عناصر تجربة ابي القاسم الشعرية : روحه طبعه ، رهف حسه ، قراءاته المتعددة للأدبين العربي والاجنبي .

٢ - منزلته الشعرية :

أبو القاسم الشابي شاعر عبّر عن حسّه ، ولعلّه لم يتعمد ان يكون شاعرا ، انما ساقه اليه رهف حسّه ، وتوقد مشاعره ، مع اقتداره على التعبير وتمكّنه من نقل كل ما يعتلج في نفسه الى الاخرين ، فيشاركونه فيه .

(١) د . درويش الجندی ، الرمزية في الادب العربي ، مكتبة النهضة المصرية بالفيحالة ، ١٩٥٨ ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٢) د . محمد مندور ، مقال نشره ابو القاسم كرو ، في كتابه دراسات عن الشابي ص ٩٧ .

وكان أبو القاسم من زعماء التجديد في الشعر العربي ،
يؤكد ذلك قول الدكتور مندور " انه كان اقوى جماعة أو بطلو .
وتجاوز أبو القاسم بشعره حدود تونس ، ليصل الى مسامح
القارئيين في كل انحاء البلاد العربية ، ولعلته الشاعر العربي
الوعيد في شمال افريقيا كلها الذى يصل الى مثل هذه المرتبة
ويسمو الى هذه المكانة .

ويرى بعض النقاد ان الشابي لتونس كالمتمني للعراق ،
والمعري لسوريا ، وجبران للبنان ، وشوقي لمصر . (١)

واتفق الكثير من الادباء والنقاد العرب على تمجيد الشابي
والاشادة بعبقريته ، فالدكتور أحمد زكي ابو شادي يقول " ان لابي
القاسم الشابي روائع كثيرة ظفرت مجلة أو بطلو ومجلتها بالقسط
الاوفر منها ، وانه لتعصب المفاضلة بين قصائده هذه فجميعها
يتسم بالجمال الفني الاثيق بكامل عناصره ، ان شعر الشابي هو
شعر العبقرية والتفوق ، فله قدسيه نورانيه يصعب تعريفها ،
وسواء ادينا فجرها أو شروقها ، لانها على اختلاف منازلها تتألق
بالجمال ، وتتم عن رسالة سامية ، وأبو القاسم الشابي هو احمد
أولئك الافئذ العاصمي الروح ، الذين لم يبهروا النقد الموضوعي
فحسب ، من ناحية الطاقه الفنية القويه ، بل بهروا كذلك مقاييس
المثالية الرفيعة ، من خلقية ووطنية وانسانية ، وكانت معجزتهم
الازواج بين هذه المزايا وفي الانسجام التام بينها ، وهذا قلما

(١) أبو القاسم كرو ، ما يجب نعتو الشابي ، مقال ورد في كتاب دراسات عن

الشابي للمؤلف نفسه ، ص ٨٧ .

يكون إلا لصفوة الصوفيين . (١)

ويرى بعضهم ان الشابي كان شاعرا كاملا ، أحب الجمال ،
وأحب الحياة ، وأحب وطنه ، وأحب الكون ، وأحب العرية ، وكان
هذا الحب ممتازا في شاعر ممتاز ونفس ممتازة ، فهو حسب
يسمى فوق الالم ، وفوق الاضطهاد ، وفوق الجسد ، هو حسب
يتخطى حدود تونس الى مصر الى الشام الى العراق ، فلا يلبث
ان يكون انسانيا شاملا وعالميا فير محدود . (٢)

وللشاعر المرحوم - عزيز أباظة - رأى في الشابي لا يقل عن
آراء زملائه " ان الشابي ليس من الشعراء الذين يقذف بهم في
هذه الدنيا ثم يحملون منها ، فلا تحسبهم هذه الدنيا ، ولكنه
على النقيض من قلائل الشعراء الذين لا تستطيع الدنيا الا ان تؤمن
حين يشرقون عليها ان شيئا ذا خطر دب فيها ، أو حلق في
أجوائها " (٣)

ابو القاسم شاعر ذو سمعة عالمية :

ترجم العديد من شعر الشابي الى الفرنسية ، ونقلت له
مجلة " ابلا " الفرنسية ثلاث قصائد في أعدادها السادسة والثلاثين

-
- (١) احمد زكي ابوشادي ، ابو القاسم الشابي ، مقال أورده ابو القاسم كرو
في كتابه اثار الشابي وصداه في الشرق ، المكتب التجاري للطباعة
والتوزيع والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦١ ، ص ١٧٠ - ١٧٤ .
 - (٢) ابراهيم ناجي ، اننا نبحث عن الشاعر الكامل كما نبحث عن المعجزة ،
المرجع السابق ، ص ٢١٢ .
 - (٣) عزيز أباظة ، البحث الجديد ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ .
- ١٣٩ / ٠٠٠

والسابع والثلاثين والسادس والأربعين . كما ترجمت بعض قصائده
إلى الإنجليزية والسويدية ، وأصدر أبو القاسم محمد كرو كتاباً
عنه بالفرنسية . (١)

فهذا الشاعر الإيطالي " قويدو ميدنييه " يناجي زملاءه
الشعراء في كتابه " أفريقيه " فإذا ما تحركت النخيل وداعتته
الرياح ، فأنا لا أفكر إلا فيك يا شابي ، أنت يا شابي كسان قلبك
يتسالم ، ويتقطر عند رؤية الطبيعة ، وهي شائرة ، والبحر وهو
متلاطم الأمواج " (٢)

لذا يرى بعض النقاد ، أن أبا القاسم قد تجاوز حدود
وطنه ، ليضحي شاعراً عالمياً ، خاصة في أشعاره التي قالها
في مرحلة نضجه الفني ، فهو مثل طافور ولامارتين الذين
يقولون ويكتبون ، لتستمع إليهم جميع أمم العالم على اختلاف سنتهم
وأجناسهم وأديانهم " (٣)

* * *

-
- (١) أبو القاسم محمد كرو ، دراسات عن الشابي ، ص ٤٦ .
 - (٢) أبو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ١٣ ، ١٤ .
 - (٣) إبراهيم ابورقعه ، حياة أبي القاسم الشابي ، مقال ورد في كتاب
دراسات عن الشابي ، أعدد أبو القاسم كرو ، ص ٧٢ .
- ١٣٠ / ٠٠٠

الفصل الثاني

أهم أغراض شعره وخصائصه الفنية

طرق أبو القاسم العديد من أغراض الشعر قديمه وحديثه ،
ولكن أهم القاسم كان ينأى بالشعران يكون أداة مدح يكمله لسادة
القم ، ليعلمهم وينال من اعطياتهم .

لا أنظم الشعر أرجو	به رضا أمير
بمدحة أو رشاء	تهدي لربّ السرير
حبي اذا قلت شعرا	ان يرتضيه ضميري
لا أقرض الشعر أبغي	به اقتنابي نوال
الشعران لم يكن في	جماله ذا جلال
فانما عوطيف	يسعى بوادي الضلال
يقضي الحياة طريدا	في ذلّة واعتزال

لذا خلا ديوان أبي القاسم من أية قصيدة في المدح .

أما الهجاء فلا يحتوى على أية قصيدة هجا فيها شخصا
بمینه ، بل تجد الكثير منها في هجاء شعبه ، أو هجاء أعدائه ،
وقد سبق ذكر نماذج منها حين عرضت لموضوع - علاقة الشابي
بشعبه - .

الرشاء :

الباحث في ديوان أبي القاسم لا يجد فيه الا قصيدة واحسدة

في الرشاء ، هي تلك التي رثى فيها والده .

وقد قدّم لها الشاعر بقوله " هي صرخة من صرخات النفس ،
المملوءة بالاحزان ، والذكريات وشظية من شظايا هذا القلب المحطم
على صخور الحياة ، قلتها في أيام الاسس التي تلت نكثتي بوفاء
الوالد رحمه الله . (١)

ولهذا يعتبر الرثاء من اقل أغراض الشعر التي طرقتها الشاعر
الا ان الدكتور شوقي ضيف يرى ان الشاعر كثيرا ما رثى نفسه ، يقول
" لعلّ شاعرا عربيا لم يرث نفسه وبكيها ، كما رثى في عصرنا نفسه
وبكاهها ابو القاسم الشابي ، الذي وصف به مرض القلب ، وهو في
رمان الشباب ، فماش يبكي نفسه ويندبها نديها حارا لا في مرثية
أو مرثيتين ، وانما في ديوان حافل بألوان الشجن والاسس ، وصف
فيه كيف أهد المرض الابواب والنوافذ عليه ، فلم يعد يرى الا عابثته
وحفرته ، بل ان هذا الصير الذي لا بد وافد عليه ومنتته اليه اصبح
يظلمه ، ان يرى فيه منجاته من أوصابه وآلامه ، وعوي يسمي هذا
الصير " الصباح الجديد " وفيه يقول :

أسكتي يا جسراح	واسكتي يا شجون
مات عهد النسوح	وزمان الجنسون
وأطلّ الصباح	من وراء القرون

فاعة الخلاص قد دنت ، وأن له ان يدفن آلامه ، ويفترق
أحزانه في خضم اللانهاية ، فقد دعاه الصباح ، ولم يعد الظلام
يستطيع ان يلفّ جسده في ظلال الالم ، انه راحل وهو سعيد برحيله . (٢)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٩٥ .

(٢) د شوقي ضيف ، الرثاء ، سلسلة فنون الادب العربي - الفن الغنائي ، دار

المعارف ، ١٩٥٥ ، ص ٣٤ .

السوداع السوداع	يا جبال الهمم
يا ضباب الاسى	يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقي	في الخضم العظيم
ونشرت القلاع	فالسوداع السوداع

ومن أهم الافراض التي طرقتها الشابي في شعره ، هو شعره
في الحياة والموت وقد سبق التعرض له حين تحدثت عن فلسفة
الموت عنده .

وشعره الوطني ، الذي ذكرت اطرافاً منه حين عرضت لموضوع
- علاقة الشابي بشعبه - وهذا الشعر يزخر بالثورة على المستعمرين ،
وفيه بحث شعبه على الثورة ويدعوه الى حياة كريمة ، وهو من
اشهر شعراء أبي القاسم ، امتاز بالصدق والعنف والحدة ، مما جعل
الدكتور شوقي ضيف يعتبره أصدق شعر وطني قاله شاعر عربي معاصر
يقول : " وهذا الشعر السياسي أو الوطني كان منتشراً في كل بلاد
الشرق الاوسط : في مصر والشام والعراق ، ولكن شاعراً لم يبلغ في
هذه البلدان ما بلغه الشابي في تونس من حدة الاحساس وعنفه ،
حقاً نجد عن حافظ والرصافي واضاربهما تعبيراً سياسياً أو وطنياً
متحدثاً في لغتنا ، ولكننا لا نجد عندهما هذا الاحساس الحاد الذي
يجعل الشاعر يحس في أعماقه آلام أمته وأوجاعها تلقاً المستعمر
الظالم ، فينتفض ويزار في وجه القاصب زئير الماصفه ، على نحو ما
يزار الشابي " (١)

(١) د . شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ص ١٥١ .
١٣٣ / ٠٠٠

ويبقى فرضان رئيسان ، أرى أن أعرض لهما في هذا الفصل هما
شعر الطبيعة وشعر الغزل .

١ - شعر الطبيعة :

حين تصدى الشابي للطبيعة يصفها ، لم يقف منها موقف المشاهد
يصف مناظرها الخارجية ، إنما تعمقها وشخصها ، وكثيرا ما ناجاها
وحاورها ، فعلمته فلسفة الحياة ، وعلمته الطهر والنقاء ، ثم هو كثيرا
ما لجأ إليها عندما اهملت عليه الحياة ، وحين لم يفهمه أهلها ،
فاعتبرها محرابه الذي يتميد فيه ، ويهتدى فيها إلى أسرار الكون ،
ومفاتيح الحياة ، والشابي في هذا يتفق مع اساتذة المدرسة الرومانسية
من أمثال روسو ، وبيرون ، وشاتوبريان ، يرى الطبيعة مأوى ومسكنا
لروحه وشاعره التي تأذت وتألمت ، وهو إذا أوى إلى أحضان الطبيعة
إنما يفعل هذا زهدا في دنيا الناس ، وهروبا بشاعره من أن
تصطدم بحياة اليوم العادي ، فهو يرى أن النشوة التي تمنحها الطبيعة
هي أجمل ما تمنحه كئوس الراح .

مالنا والكؤوس نطلب منها	نشوة ، والفراغ سحر وسكر
خلنا نلذذ فالربيع لنا سقا	ق ، وهذا الفضا كأس وخمر
نحن نغدو بين المروج ونغدو	ونغني مع النسيم المغني
ونناجي روح الطبيعة في الكو	ن ، ونصغي لكونها المغني

والشابي كثيره من شعراء الرومانسيه ، يلجأ للطبيعة كراهبة
وبفضا للإنسان ، كأن يجد في الجبال غذا لشعوره ، وفي الغاب
صدر سمته ، وفي رؤيه المدن وسماع ضجيجها أذى لسمعه وبصره .

مشق الشابي الطيِّمة ، ومنها استمد استعاراته وتشبيهاته ،
يستشهد بها في ثنايا الكثير من قصائده ، فإذا وصف حبيبته فهي
عذبة كالصباح ، وكالسماء الضحوة ، كالليلة القمرية .

وفي قصيدته " ارادة الحياة " يدخل مع الطيِّمة في حوار ،
يتعلم منها القوه :

ودمدت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وثحت الشجر
إذا ما طمحت الس فابة ركبت المنح ونسيت الحذر

ثم يسأل الارض " يا أم هل تكرهين البشر " ، فتجيبه :

أبارك في الناس اهل الطمح ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يمشي الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر

وهو ان كان ناجى الرياح ، وخاطب الارض فقد همس في اذن الدجى
سائلا :

سألت الدجى هل تعبد الحياة لمن اذبلته ربيع العمر
فلم تتكلم شفاء الظلام ، ولم تترنم عذارى السحر
ولكن ما الذي اجابه ؟
وقال لي الغاب في رقة محببة مثل خفق الوتر

ألا تسرى ممي كيف كان الشابي يشرك الطيِّمة في كل شأن من
شئونه ، يدبر معها حوارا . أبطاله الارض والرياح والدجى والغاب ،
كل يجيب عن سؤال ، لقد سخر الشابي الطيِّمة لتوضيح فلسفته ونظريته
الى الحياة .

وهو اذا حزن يسقط احزانه على الطبيعة ، فهي تضحك لضحكه
وتبكي لبكائه .

ما سكون المساء الا أنين ونشيد الصباح غير نجيب

والشابي الذي عانى المرض ، وفكر كثيرا في الموت الذي سينتهي
حياته رأى الصحراء ساهمة حزينة ، رآها تفكره في الموت والحياة ، كما
يفكر هو فيها ، لستمع اليه يقول " جمال الصحراء الذي يمتد أمامي
جمال ساهم محمم ، ولقد يخيل لي أحيانا انه يفكر فيما وراء هذا
العالم الصاحب الموار ، في معاني الفناء والموت والظلم ، لقد يبلغني
ألوهم أحيانا ان احبه نفا شاعره مبلوله ، تتاجي في حمسى
سقام احلامها الحزينة الصامتة الموشحة بأردبة الموت. (١)

وهو في قصيدته النبي المجهول ، يود لو ان له قوة الطبيعة
بمظاهرها المتعددة ، قوة رياحها ، وقوة شتائها ، قوة عواصفها ، وقوة
اعاصيرها يكملها على رأس شعبه الذي تنكر له .

ليتني كنت كالرياح فأطوى كل ما يخفق الزهور بنحسي
ليتني كنت كالشتاء أغمشي كل ما أذبل الخريف بقبرسي
ليت لي قوة العواصف يا شعبي فالقي اليك ثورة نفسسي

وحين اعتزل شعبه لجأ الى الطبيعة ، لتقوم سيولها بحفر رسمه :
ثم تحنت الصنوبر الناظر الخلو تخط السيول حفرة زمسي (٢)

(١) نصر لابي القاسم الشابي ، أورده محمد خليفه التليسي في كتابه الشابي وجبران
ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
١٣٦ / ٠٠٠

من النماذج السابقة ، لاحظنا كيف شخص الشابي الطبيعة وجسمها
فاذا هي حبة ، ناطقة فيلسوفه ، واذا هي باكبه حزنه أوضاعكة
مشرقة ، أوقوية جبارة .

والليل بكل ما فيه من جمال ورهبة ، من هدوء يهيمت نفسي
النفس التأمل ، وفي الروح الاشرار ، ويشير في النفس الكهبة الخاف ،
هذا الليل كان له مع ابي القاسم شأن :

أيها الليل يا أبا البؤس والاهوا ل ، يا عيكل الزمان الرهيب
فيك تجشوعرائس الأمل العذ ب ، تصلي بصوتها المحبوب
فيشير النشيد ذكرى حياة حجبها غيم دهر كيب
انعا ليل ذرة صعدت للكون ، من سوطي الجحيم الغضوب
فيك تنموزنا بق الحلم العذ ب ، وتذوي لدى لهيب الخطوب
بهجع الكون ، في طمانينة المصفور ، طفلا بصدر ك الفريب (١)

لقد كان ابو القاسم يحفل بالصورة الفنية ، فيقيمها لوحة يتخيلها
الذعن ، وتكاد تراها الصين من مثل قوله :

فيك تجشوعرائس الأمل العذ ب ، تصلي بصوتها المحبوب
وقوله :

بهجع الكون في طمانينة المصفور ، طفلا بصدر ك الفريب

هذه هي الصور التي حفل بها ديوان الشابي ، والتي تعتبر
من اهم خصائصه الفنية .

(١) ابو القاسم الشابي ، اظاني الحياة ، ع ٢٥ .

وتجد روعة الصورة في قصيدته " الجنة الضائعة "

كم من عهد عذبة	في عدوة الوادي النضير
كانت أرق من النسيم	ومن أفاريد الطيور
وألذ من سحر الصبا	في بسمة الطفل النوير
أيام كانت للحياة	حالة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل ، وسحر شاطئه المنير	
ووداعة العصفور ، بين جوارل المساء المنير (١)	

فأنت واجد في هذه الابيات التي بجانب الصور المتلاحقة ،
رنين جرس المبارات العذب ، وفيها رقة تتفرع عن نيل عاطفه وأحاسيس
ثم ان اللفظ على قدر المعنى ، فلا حشو ولا زيادة .

والطبيعة في شعره لم تظفر بقصائد مفردة ، فلا تجد في
ديوانه قصيدة بعينها يصف فيها غابة أو نهرًا ، أو اشراقة الشمس ،
أو أقول نجم ، بل نجد ذلك في ثنايا قصائده على تعددها ، ومهما
اختلفت اغراضها . ولعل القصيدة الوحيدة التي خصصت لذلك ، قصيدته
من " أفاني الرعاة " (٢) . وهذه القصيدة من أفنى قصائد الشابي
بالصور الجميلة المعبرة ، وفيها تتجلى قدرة الشاعر الموسيقية ، فأنت حين
تسميها تطرب لالوان ثلاثة من الفن : تطرب للشعر العذب ،
والموسيقى الطرية ، والصورة الجميلة ذات الالوان الخلابية .

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

يقول :

أقبل الصبح يفني للحياة الناعسة
والربى تحلم في ظل الفصون المائسة
والصبا ترقص أوراق الزهور المابسة
وتهدى النور في تلك الفجاج الدامسة

ألا ترى روعة الصورة ، ألم تطرب لغماء الصباح ، يردده للحياة
الوسفانة التي لم تكد تصحو من نومها ، ألا تحس معي جمال الربى
تشر عليها ظلال الفصون الرائحة الفادية يغازلها النسيم ، والصبا
ذلك النسيم المحظوظ الذي تغنى به شمراء العربية في مختلف
عصورهم ، ألا تراه يحرك أوراق زهوره يست ، والنور هل كان ساظما
في ساعات الصباح الأولى ؟ لا بل كان يسير متهاوبا ، يفني
الظلام ويهدد الحلكة .

أقبل الصبح جميلا ، يملأ الأفق بهاه
فتطير الزهر والطيور وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحي وغنى للحياه
فأفريقي يا خرافي ، وهلمي يا شياه

لقد اجاد شاعرنا حين صور بأسلوب أخاذ طلوع الفجر ،
وبزوغ الشمس وتنفس الحياة ، وديبب الفاس ، واستقبالهم الحياة
باشراقة وأمل ، وهو يعتمد ذلك ليصور لنا كيف استقبلت الطيور
والزهور والامواه الفجر ، وفنت له ، صورة جميلة يتخيلها القارىء
كأنها تدب أمامه ، لو سمعها رسام لقام بتحويلها من صورة لفظية

تسمها الاذن وتطرب ، ومبها العقل فيكبر الطبيعة ويسجد للخالق
الى صورة مرئية تراها العين ويدركها الذهن .

واتميني يا شياهي بين أسراب الطيور
واملكني الوادي ثغاب* ومراحا وحبور
واسمي همس السواق ، وانشقى عطر الزهور
وانظري الوادي يفشيه الضباب المستنير

ويستمر الشاعر فيقيم صورة جميلة له ولخرافه تنبئه في الوادي
بين أسراب الطيور ، وهمس السواقي .

وهكذا يستمر الشاعر في مقاطع القصيدة العشرة ، وأبياتها
الاربعين يرسم في كل مقطع ، وفي كل بيت صورة جميلة تبين ما فطرت
عليه ذاته من خيال مرهف ، نستمتع اليه يقول :

واسمي الريح تنفي في شمابخ الجبال

ألم يجمال الشاهر الرياح تنفي ؟ لقد أضفى على الرياح

الحياة ، ومنحها حق الفناء .

والشاهر الذي يديم التفكير ، ويظيل التأمل في الكون واسراره

كأنني به قد أراد ان تشاركه شياحه وخرافه تفكيره .

وامضني الاعشاب والافكار في صمت الظلال

والشاهبي الذي لا يلبث ان يعمر قلبه السرور ، الا ليكدره

الحزن يخاطب شياحه قائلا :

لن تملي يا خرافني في حمى الغاب الظليل

فزمان الغاب طفل لاعب ، عذب ، جميل

وزمان الناس شيخ عابس الوجه هزيل

انظر الى الصورة ، ألم يجتم الشاعر " زمن الفاب " ويجعل
منه طفلا صغيرا ؟ وزمن الناس فيجعل منه شيخا عابس الوجه همل
انها القدرة على التصوير والتجسيم التي امتاز بهما الشاعر .
وتجد عند الشاعر قدرة بارعة على حسن التمييز بأسلوب شيق ،
لقد عبر عن وقت العودة قبل الفروب بقوله :

فاذا طالت ظلال الكلا الغض الضئيل
فهلمي نرجع المسمى الى الحي النبيل

لقد عبر الشاعر بطول الظلال عن الوقت قبيل الفروب ، عبر
عنها بصورة جميلة ابتدعها خياله ، صورة الكلا وقد طالت ظلاله .
وبعد عمل تعجب اذا قرر أحد الناقدين ان هذه القصيدة
" هي أعرق شعر الطبيعة في الادب العربي " (١)

٢ - الفسزل :

اختلف كثير من الدارسين للشابي ، حول حقيقة حبه ، فهناك
من يرى ان الشابي قد أحب حبا حقيقيا ، وان هناك فتاة تبلسست
فؤاده وهام بها ، ومن هؤلاء أبو القاسم محمد كروالذي يقول " أن
قصة حب الشابي لم تعرف فضولها بعد ، ولكنه مع ذلك مقتنع كل
الاقتناع بأن الشابي أحب في حياته حبا حقيقيا صادقا ، وأنه أغرم
بتفأة معينة غراما عنيفا مشهورا ، وبأن تلك القصائد الغزلية الحسان

(١) خلفه محمد التليس ، الشابي وجبران ، ص ٧٩ .

المسلومة بالحرارة والوجدان هي الاصدى صادق لبذلك الحب." (١)

ويذهب هذا المذهب الاستاذ السنوسي يقول " ان له حبيبة ماتت وتركته يندب " جدول الحب " ولنا علم يقين انه أصيب بمرض القلب من تلك الصدمة." (٢)

أما الدكتور شوقي ضيف فيرى ان الحب الذي لوع قلب الشابي وعطف به لم يكن الا حبه للحياة التي أدرك انها ستفقد من بين يديه "وأكثر الظن ان ليس هذا الحب الذي يرثيه الاحبه للحياة ، وما يتألق في بصره من جمالها ، الذي يسطع على الاشياء والاشخاص من حوله" (٣)

وهناك من يذهب الى ان الشابي لم يحب حبا ماديا ، وانما احب العالم العلوي المثالي ، فهو حب ميتا فيزيقي " واني أظن ظنا يقرب من اليقين ان الشابي لم يحب حبا ماديا ينفني به قضاء وطير أو وصال حبيب ، بل كان قلبه يخفق بحب روحي علوي ، يتمثل في مشاهد الطبيعة الساحرة ، وفي مناظرها البهيجة ، وكان حبه معناها بالقيم الروحية من جمال ، وفن وخير ما الى ذلك من هذه الروحانيات" (٤)

-
- (١) ابو القاسم كرو ، الشابي حياته ، شعره ، ص ٩٦ .
 - (٢) زين العابدين السنوسي ، ابو القاسم حياته ، أدبه ، تونس ١٩٥٦ ، ص ٣٢ .
 - (٣) د شوقي ضيف ، دراسات في الادب العربي المعاصر ، الطبعة الثالثة ، ص ١٤٧ .
 - (٤) ابو القاسم محمد بدرى ، الشاعران المتشابهان ، الشابي والتيجاني ، ص ٥٩ .

أما صديقه الاستاذ محمد الحليوي يقول " ان الشابي أحب
المرأة كجنس ، وليس هناك واحدة بعينها ودليله ان الشاعر لا يذكر
امرأة مخصوصة ، ولا واقعة بعينها ، وانما يذكر المرأة والحب ، وسبغ
عليها من روحانيته العميقة كل المعاني الرقيقة " (١)

ويرى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ان حب الشابي كان
حبا عذريا " وقد ظهرت هذه النزعة الصوفية في الحب عند
شعراء "أوباللو" وأخذوها تيارا عاطفيا ، لتثبيل فلسفتهم العاطفية
المعلومة بالحب والحرمان والالم والمذاب ، والضنى والارق ، فالحنسب
عندهم متعة للروح لا للجسد ، وهذه نزعة الرومانتيكيين السائدة فُتت
بها شعراؤنا ، وقصيدة الشابي " صلواتني هينكل الحب " من أمثلة
هذه الظاهرة الفنية " (٢)

والاستاذ محمد خليفه التليسي اكثر من اهتم بموضوع المرأة
في شعر الشابي ، حيث أفرد له فصلا في كتابه " الشابي وجبران "
وفيه يرى ان الشابي لم يحب في حياته امرأة معينة ، وانما كان
يتعنى بالمرأة كمثل أعلى ، دفعه الى ذلك ما لاحظته من انحطاط
شأن المرأة في الادب العربي ، وانها لم تكن خلال العصور الا كقطعة
أثاث تتنقل من بيت أبيها الى بيت زوجها ، لا يهتم بها الرجل الا
كجسد ومتعة ، والشابي الذي كان رومانسي الاتجاه والمذهب ، احب
انسراه ونظر اليها نظرة العقدة والتصوف فاذا المرأة في منزلة المعبودة ،

(١) محمد الحليوي ، مع الشابي ، (سلسلة كتاب البحث) تونس ١٩٥٥ ، ص ٢٤ .

(٢) د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الادب العربي الحديث ومدارسه ،
ص ٢٧٨ .

حاول الشابي بهذا ان يقبل عشرتها ، وان يسمو بها من جسد يحس
ويجس ، الس روح طاهرة تحمل في طياتها أنهل المعاني ، فهي الام
والشقيقة والصديقة . وفيها تتمثل معاني الاسومه الرؤومة ، فهو يقول
"شمر الشابي صادر عن نفس محرومه ، فلا يتنفس فيه الا الشوق والحنين
الى تلك التي تنقذه من جهامة أيامه ، ورتابتها الممله ، ولذلك
اجدني من القائلين بأنه كان يتفنى بالمرأه كمثل أعلى ، لا امسرة
سمينة" (١)

واليباحث يرى ان ابا القاسم قد يكون أحب فتاة بمعناها ، وهام
بها حبا ، ومرجمي في ذلك ديوان ابي القاسم نفسه ، الذي ضم
العديد من القصائد الفزلية التي عبرت عن لحظات سعادة عاشها
الشاعر مع حبيبته ، ولحظات يؤس خلفها موتها .

فهو يخاطبها قائلا :

أنت ما أنت ؟ أنت رسم جميل عبقري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه عن فموض وعمق وجمال مقدس معبود
انت روح الربيع تختال في الدنيا ، فتبهتر رائعات السورود
كلما ابصرتك عيناي تمشين بخطو موقّع كالنشيد
حقق القلب للحياة ، ورف الزهر في حقل عرى المجرود

ثم يخاطب الحبيب ويعتبره اكثر من أقض مضجعه ، وأذوى جسده
وأسقم بدنه :

(١) محمد خلفه التليسي ، الشابي وجبران ، ص ١١٧ .

أهبها الحب أنت سر بلاني وهمومي وروعتي وعنائتي
ونحولي وادمعي وعذابي وسقامي ولوعتي وشقائتي

وقد يقول البعض ان مثل هذه النماذج الشعرية ، لا تقيم الدليل
على ان الشابي أحب امرأة بعينها ، فلم يهتف باسم عند أو نسم ،
كما عتف بها شعرا المرء من قبل ، وقد يكون في ذلك دليلا على
انه يخاطب المرأة كجنس . ولكن نستمع اليه يقول اثر وفاة حبيبته
... ولا يعقل ان تموت المرأة كجنس .

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الباسمه
واليم قد أسست كعساق الكهوف الواجمه
قد كان لي ما بين أحلامي الجملة جدول
يجرى به ماء المحبة طاهرا يتسلسل
هو جدول قد فجرت ينبوعه في سهجتي
أجنان فائقة أرتيتها الحياة لشقوتي
أجنان فائقة قرأت لي على فجر الشباب
كمروسة من غايات الشمر في شفق الحباب
ثم اختفت خلف السماء ، وراء هاتيك الفيم
حيث المذارى الخالدات يسنن ما بين النجم
ثم اختفت أوام ، طائفة بأجناح المنون
نحو السماء ، وها أنا في الارض تمثل الشجون

ومهما يكن من أمر ، أكان الشابي أحب المرأة كجنس ، أو أحب
امرأة بعينها ، فان ديوانه يحتوى على قصائد غزلية جميلة عذبة .

لمل أشهرها قصيدة - صلوات في عمك الحب - التي حازت إعجاب
كل دارسي شعر أبي القاسم ، وهو يرى أن الدكتور أحمد زكي أبو شادي
حين انتهى من قراءة هذه القصيدة ، وكان الشابي قد أرسلها لتشر
في أعداد مجلة " أوينلو " ص ١٠٠ " هذا هو الشعر الذي نشدناه ،
ونشده من قبلنا ، فضلوا الطريق وظللتناه ، حتى ظفربه الشابي
وحده من دوننا ، وكان أبو شادي يرقص طربا ، وبهتر حبوراً وهو
ينشدها . " (١)

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماض الضحك كالليلة القمر كالورد كالبسم الوليد
بألها من وداعة وجمال وشباب نغمهم أمم لود
وبعد أن يصفها بالطهارة والوداعة ، يقول :

فتأملت في الوجود كلحن عبقري الخيال حلو النشيد
خطوات سكرانة بالاناشيد وصوت كرجع نأى بعبيد
وقوام يكاد ينطق بالألحان في وقفة وقمم لود
كل شيء موقع فيك حتى لفتة الجيد ، واهتزاز النهود
فجبهته نغم ، ولحبيبين وشيتها أيقاع موسيقي عذب

ثم يخاطبها

أنت . . . أنت الحياة في رقة الفجر في روضق الربيع الوليد
أنت . . . أنت الحياة كل أوان في رواء من الشهاب جديد
أنت . . . أنت الحياة فيك وفي ميمك آيات سحرها الممدود
أنت دنيا من الاناشيد والأحلام والسحر والخيال المديد

(١) طه عبد القادر سرور ، أبو القاسم الشابي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٠٥ .
١٤٦ / ٠٠٠

انت فوق الخيال والشعر والفن ، وفوق النهى وفوق الحدود
انت قدسي ومعبدي وصباحي ، وزيممي ونشوتي وخلودي (١)

فهي كل شي * في عالم الشاعر ، هي حياته العذبة الجميلة
الصادقة ، لقد ارتفع بها الى عالم من المثل والاحلام ، فهي ليست
من عالم الناس ، ثم يقسول :

يا ابنة النور انني أنا وحدي من رأى فيك روعة المعبود
فدعيني اعش في ذلك المذب وفي قرب حناك المشهود
عيشة الجمال والفن والالهام والطهر والسنى والسجود

وحين عرض الدكتور عبد القادر القبط لهذه القصيدة ، قرر أن
الشابي شاعر رومانتيكي ، وشعره يمثل كل خصائص الرومانسية ، ففيه
حدة الماطفه والمبالغة والانفعال ، والانطلاق في التصيير من الاحساس
الى ابعاد غاية ، ولعلّ أوضح مثال لهذه النزعة تصيدته " صلوات في
هيكيل الحب " بضرعتها التي يحمل العنوان شيئاً كثيراً منها " (٢)

ومن جميل غزله الملي * بالصور الفنية التي تتوالى الواحدة بعد
الاخرى في خصوبة عجيبة ، تمثل رصيد ابي القاسم الفني ، الذي لم يتح
له الزمان ان يفيض بأناه ، وانما تدفق سيالا لا يجيش بالحياة وكأنما
الشاعر كان يسابق الزمن فحشد كل ذخيره فيما استطاع ان ينظمه
في حياته القصيرة .

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) د . عبد القادر القبط ، مجلة الاديب اللبنانية ، ص ١٢ ، ج ٣ (مارس ١٩٥٣)

وهنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكون
معبدا للجمال والحب شمريا ، شهدا على فجاج السنين
معبدا ساحرا ، مباخره الزهر ، على الصخر ، والثرى والفصون
كل زهر يصوع منه اريج من بخور الربيع ، جم الفنون
ونجم السماء فيه شموع أوقدتها للحب روح القسرون

وهذه المشاهد الجميلة التي يراها في عيني حبيبته :

أى دنيا محورة ، أى رؤيا	طالعتني في ضوء هذى الميون
زمر من ملائك الملا الأعلى	يفنون في حنو حنون
وصبايا رواقص يتراشقن	بزهرة التفاح والياسمين
في فضاء مورد حالم ساه	أطافت به عذارى الفنون (١)

هذا الحب الذى عاشه الشابي هو حب رومانسي ، انه حسب
لذات الحب ، لا شيء آخر ، ومن الرومانسيين من لا يحسب الا ليدمى
بالحب قلبه ، يستعذبا في سبيله المذاب يقول موسيه " اى الهسه
الشمر ، ما يهمني من موت أو حياة ؟ انني احب وأريد ان يشحب لوني
أحب وأريد المذاب ، أحب واهب عبقريتي جزاء قلبه ، أحب وأريد ان
احس على خدى فيض نبع من الدموع لا يفيض" (٢)

وطبيعي ان تحتل المرأة في ذلك الادب مكانا رفيعا ، لم تظفر
بمثله من قبل ، فقد ادى السمو بالمواطف ، والصدق فيها ، السنوع
من تهديس المرأة ، والاشادة بها ، والخضوع لسلطانها ، ولم يكن

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، ص ١٤٧ . ١٤٨ / ٠٠٠

خضوعهم آينة خنوع وضعف ، بل كان مصدره صدق الماطفه .

وأكد حقيقة رومانسية الحب عند الشاعر - الدكتور احسان عباس -

حين عرض لقصيدة الشابي - ايتها الحاله بين الموصف - وفيها يقول :

انت كالزهرة الجميلة في الغاب ولكن ما بين شوك ودود
والرياحين تحسب الحسك الشرير والدود من صنوف السورود
فانهي الناس .. انما الناس خلق ففسد في الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاشك الليل فربما في اهل هذا الوجود
ودعهم يحيون في ظلمة الاسم ويمشي في طهرك المحمود
كالملاك البري ، كالوردة البيضاء كال موج في الخضم البعيد
كاغاني الطيور ، كالشقق الساحر كال كوكب البعيد السعيد
كتلج الجبال ، يفمرها النور وتسمو على غبار الصعيد
انت تحت السماء روح جميل صافه الله من غير الورود
وبنو الارض كالقنود ، وما اضيع عطر السورود بين القنود
انت من رهشة الاله ، فلا تلقي بفن السما لجهل العبيد
انت لم تخلق ليقرئك الناس ولكن لتعبدى من بعيد (١)

ويرى الدكتور احسان عباس ، ان هذا الشعر مدائي ، وأن

رومانطيقية الشاعر سلبه لا نرى في الناس الا الشوك والدود والفساد (٢)

وتظهر رومانسية الشاعر واضحة في البيت الاخير من القصيدة :

(١) هو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٥٥ .

(٢) د . احسان عباس ، فن الشعر ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ ، الطبعة

الثالثة ، ص ٢٤٧ .

انت لم تخلفي ليقربك الناس ولكن لتعبدى من بعيد

فهو لا ينشد الحب بنية ملذات الحس ، ومتع الجسد ، وهو في هذا يتفق مع فكتور هوجو زعيم الرومانسية حين يقول مخاطباً حبيبته " اني احبك حبا صادقا ، وأسفاه اني احلم بك حلم الاعمى بالضوء ، سيدتي اصغ اليّ : فندى احلام لا عداد لها ، احبك من قريب ومن بعيد ، وفي جوف الظلام ، ولا أجرؤ على لمس طرف اصبعك . " (١)

ولكن هل احب الشاعر حبا رومانتيكيا فحسب ، الا يوجد في شعره ما يصور شمة جسدية ؟ لقد اجبت على هذا السؤال حين عرضت لرأى الشاعر " في المرأة في الادب العربي "

وممد فالقاري لديوان الشابي ، يلاحظ ان جانب رومانسيته المحببه وصورته الفنية المصبرة ، وجمال الموسيقى ، يلاحظ وحدة القصيدة المضمومة وسهولة اللفظ

* * *

(١) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، ص ١٤٦ .

لعلّ أُناس ما يواجه الباحث حين يتعرّف لدراسة الشابي ،
 نحو الفموضر في كثير من المواقف ، عنده ، ولكن هذا الفموضر
 سرعان ما ينجلي أمام الوقفه المتأمله العميقة ، ومن جوانب هذا
 الفموضر ، قصائد كثيرة تتف بهما الشاعر للحياة ، وفلّى لها ،
 وشغف ، بمتعتها ، وقصائد اخرى استعجل فيها السوت ، وكناه
 بالصباح ، الذي يشرق فيزيل دجى الليل ، ويبدد حلكته ، فالسوت
 عنده اشراقه تبديد ظلمات الحياة ، فالحياة اذن مظلمة مكفهسرة
 قاسية ، ومثل هذه القصائد تشير السؤال التالي : عمل كان ابو
 القاسم عاشقا للحياة ، أم كان مبغضا لها ؟ ووصلت الى نتيجة
 أن عشق الحياة هو مبدأ أبي القاسم ، وان كان قد استعجل
 السوت ، انما استعجلته اليه محن شديدة عاناشا : السوت الذي
 ألم بكل حبيب لديمه ، المرض الذي كمن في قلبه ، الشعب الذي
 وقف ضده و حاربه . وقادته الى هذا الموقف ايضا رومانسيته
 التي وفدت اليه من روافد عدّه .

ثم هناك فموضر آخر جللّ أبا القاسم ، هو موقفه من
 شعبه ، فهناك القصائد التي عبرت عن حبه اشعبه ، وشغفه به ،
 تمثلت في العديد منها دعوة صارخة انبعثت من نفس حسّاسه
 صادقه ترجو الخير له ، ثم تلك الصرخات التي وجهها في
 قصائد كثيرة منذرا المستعمرين مهتدا اياهم بثورة هذا الشعب
 ومع ذلك فأنت واجد في ديوانه الكثير من القصائد التي
 يضطفن فيها الشاعر على هذا الشعب ، ويتمنى لو يكون اعصارا
 عدوا يودي به ، وفأسا يجتثك بها جذوره ، وقصائد اخرى

يتهم فيها شعبه بالجنون ، وانهم ليسوا أهلا للحياة . هذه
القضايا تضع الباحث أمام استفهام ملح ، الى اين ذهب أبو
القاسم في علاقته مع شعبه ؟ هل هو من محبيه أم هل هو
مبغضيه ؟ ورأيت ان الشاعر هو مع الشعب واليه ، وأن
نقته على شعبه نبعت من حرصه عليه ، حرص ان يكون قويا
شجاعا رافضا الظلم بعدا عن العجز ، وأبى الشعب الا ان يستكين
ويخضع ، ولكن الشابي فيما أرى جانبه التوفيق حين سدد سهامه
الى شعبه ، لأن الثورة لا يفجرها ظلم وقع ، وحيف حصل ، انما
يفجرها وعي ونضج ، وهذه مسئولية الفئة الواعية النابهة فسي
المجتمع ، وأنا لا يمكن ان تكلف نفسا الا وسعها . وقضية الشاعر
عاطفية ، لا تبررها الا رومانسيته التي عبرت عن المجتمع وأوت الى
الغاب تناجيه وتحاوره ، وأبعدت عن الشعب تعلمه . وقد يكمن
سبب آخر ، هو اعتلال صحته ، الذي أثر على سكون اعصابه
فجعله ضيقا برما ، لا يستطيع المحاوره والاقناع .

وأخطر ما يواجهه الباحث في ادب الشابي هو موقفه من
القديم الذي تبدى في كتابه " الخيال الشعري عند العرب "
والذي اتهم فيه خيال العرب بالضحالة والقصور عن الابداع ،
واتهم الفكر العربي بالمادية والسطحية . ورأى أن الادب العربي
القديم وان كان كنزا نرجح اليه كلما دعت الحاجة ، الا أن اعجابنا
به يجب ان لا ينقلب الى تقديس ثم جمود . ويرى ان الادب
العربي قديما عبر عن حياتهم أحسن تعبير . ونحن في حاجة
لادب يصبر عن ذواتنا وقضايانا المعاصرة . وما يؤخذ على الشابي
في هذا المجال هو نبرته الخطابية الصالية التي اتسم فيها

اسلوبه حين عرض لهذا الموضوع . ووقفت في بحثي وقفه طويلا عند هذه المشكلة وناقشتها ، وأحب أن أضيف أن رغبة الشابي الملححة في التجديد ، وقصر عمره الذي لم يتح له المزيد من رسوخ القدم في دراسة الادب العربي القديم ، هي التي عصفت به ليقف هذا الموقف ، ولكن هذا لا يعني ان كتابه خلا من كثير من القضايا الجديرة بالدراسة والاهتمام . ولعل أهمها ضرورة ان يكون لنا أدب معاصر يعبر عن ذاتنا ويغوص في اعماق واقعنا ، يبين العيوب ، لينقد ويوجه .

ثم موقفه من المرأة ، حين خلع عليها ردا ١٤١ ملاءميا وسما بها الى عالم من المثل والاحلام ، وان كما مع الشابي ، نقر أن المرأة نصف المجتمع ، وهي أمه التي فذته بلبانهمما ، وأفرقت عليه من عنانها ، الا اننا نرى ان المرأة انسان ، لها حسناتها ولها عيوبها .

تم بحمد الله

* * *

المراجع

- ابراهيم السامرائي ، نصوص ودراسات عربية وافريقية في اللغة والتاريخ والادب ، وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة العراقية سلسلة الكتب الحديثة ، دون تاريخ .
- احسان عباس ، فن الشعر ، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٩ .
- ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، القاهرة ، دار الكتب الشرقية الطبعة الاولى ، ١٩٥٥ .
- ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس ١٩٦١ .
- ابو القاسم الشابي ، الادب العربي في العصر الحاضر ، مقدمة ديوان الينبوع ، احمد زكي ابو شادي ، الطبعة الاولى ١٩٣٤ .
- ابو القاسم محمد بدري ، الشعراء المشابهان ، الشابي والتيجاني دار المعارف بصر ، ١٩٥٩ .
- ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، منشورات دار مكتبة الحياة ، الطبعة الثانية ١٩٦٠ .
- ابو القاسم محمد كرو ، آثار الشابي وصداه في الشرق ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦١ .
- ابو القاسم محمد كرو ، دراسات عن الشابي ، دار المغرب العربي تونس ، دون تاريخ .
- خليفه محمد التليسي ، الشابي وجبران ، دار الثقافة بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

- خير الدين الزركلي ، الاعلام ، ج ٦ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٥ .
- دويش الجندي ، الرمزية في الادب العربي ، مكتبة النهضة المصرية
بالفجالة ، ١٩٥٨ .
- رجاء النقاش ، ابو القاسم الشابي ، شاعر الحب والثورة ، دار
القلم بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ١٩٧١ .
- زين العابدين السنوسي ، ابو القاسم حياته ، ادبه ، تونس ١٩٥٦ .
- سليمان ربييع ، محاضرات القاها على طلبة السنة الاولى للماجستير
في جامعة الازهر ، للعام الدراسي ١٩٧٢/١٩٧٣ .
- شوقي الجمل ، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، مكتبة الانجلو
الصريه ، ١٩٧١ .
- شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ،
الطبعة الثالثة ، دون تاريخ .
- شوقي ضيف ، الرثاء ، سلسلة فنون الادب العربي ، الفن الغنائي -
دار المعارف ١٩٥٥ .
- طه عبد الباقي سرور ، ابو القاسم الشابي ، القاهرة ١٩٥٨ .
- عبد الحميد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، القاهرة
دار الجامعة للطبع والنشر ، دون تاريخ .
- عبد اللطيف شرارة ، الشابي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ .
- عمر فروخ ، شاعران معاصران ، ابراهيم طوقان ، ابو القاسم الشابي ،
بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٤ .
- محمد الحليوي ، مع الشابي ، سلسلة " كتاب البعث " تونس ١٩٥٥ .

الفهرس

صفحة	
٥	المقدمة
٧ - ١١١	الباب الاول
٨ - ٢٠	<u>الفصل الاول</u> : بيثة ابي القاسم الصامه
	تونس تحت وطأة الاحتلال الفرنسي
٨	(١) قصة الاحتلال
١١	(٢) مبرر الاحتلال
١٣	(٣) تونس بين انياب الذئاب
١٥	(٤) اعتداء فرنسا على السلطة القضائية التونسية
١٦	(٥) فرنسا تعمل على نحو الروح القومية ومحاربة اللغة العربية
١٨	(٦) فرنسا تهمل الناحية الصحية في القطر التونسي
٢١ - ٣٩	<u>الفصل الثاني</u> : بيثة ابي القاسم الخاصة
٢١	(١) مولده ونشأته
٢٢	(٢) هافته
٢٣	(٣) ابو القاسم الشابي كان يجهل اللغات الاجنبية
٢٤	(٤) كان ابو القاسم محبا للطالعة
٢٥	(٥) مراحل حياته الثقافية
٢٦	(٦) ترعسه الحركة الطلابية المنادية بالاصلاح
٢٦	(٧) حبسه
٢٧	(٨) زواجه
٢٨	(٩) وفاة والده وما سببته له من احزان
٣٥	(١٠) الشابي يرفض العمل بالوظائف الحكومية
٣٦	(١١) مرضه ووفاته

- محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الادب المصري الحديث
ومدارسه ، الحلقة الاولى ، دار الطباعة المحمدية بالازهر ، القاهرة
دون تاريخ .
- محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ،
دون تاريخ .
- نازك الملائكة ، تضاييا الشعر المعاصر ، منشورات مكتبة النهضة
بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٦٧ .
- نعمات احمد فتواد ، شعب وشاعر ، ابو القاسم الشابي ، مؤسسة
الخانجي بصر ، ١٩٥٨ .
- يوسف اسعد دافر ، مصادر الدراسة الادبية ، بيروت ، ج ٢ ،
١٩٥٥ .

الدوريات

- عبد القادر القط ، مجلة الاديب اللبنانية ، س ١٢ ، ج ٣ ، مارس
١٩٥٣ .